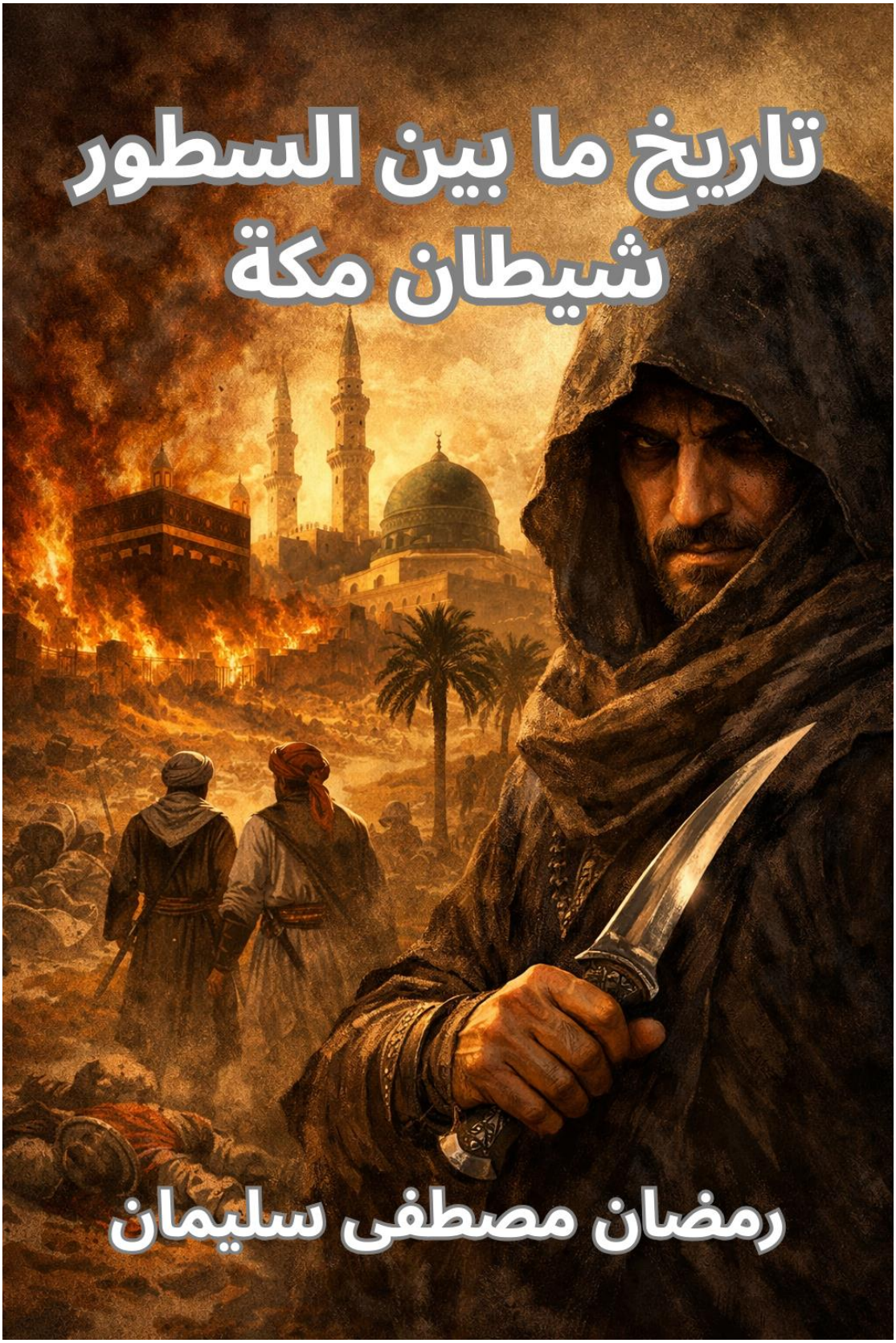
تاريخ ما بين السطور
شيطان مكة
رمضان مصطفى سليمان

شيطانُ مكة وحَواريُّ الإسلام

رمضانُ السنةِ الثانيةِ من الهجرة

كان الليلُ في وادي **مهزور** يتهجّى أنفاسه على مهل ، والقمرُ معلّقٌ بين السماء والأرض كقاضٍ لم يحسم حكمه بعد .

وفي ذلك الفضاء المرتجف ، كان رجلٌ في الأربعين ، يُهرول، لا كمن يسعى ، بل كمن يفرّ من ظلّه. عرقُه ينسابُ أنهارَ خوفٍ على جبينه ، وثوبُه يلتصق بجسده كوشايةٍ لا تُخفى ، يدور حول الجبل ، ثم يلتفت، ثم يلتفت ، كأنما خلفه التاريخُ نفسُه ، يناديه باسمه القديم ، ويطالبه بدَينٍ لم يُسدَّد.

قلت في سرّي:

كأنّي أعرفك أيها الرجل،

وحين نطقتُ ، ارتجف كما ترتجف ورقةٌ سقطت من شجرةٍ تعرف أنّ الخريف لا يعود.

قلت:

كأنني أعرفك، أيها الرجل.

فوجئ بما بدَهناه ، تسمّرت قدماه ، وانكسر صوته قبل أن ينكسر جسده:

اكتم عني يا بُني،

قلت ، وأنا أقترب ، لا تهديدًا بل كشفًا:

أكتم عنك ماذا ؟ أَلستَ **عبدَ اللهِ بنَ أُبيّ بنِ سلول** ؟ سيدَ الخزرج قبل هجرة محمد ؟ أَلستَ الرجلَ الذي كانت الأوسُ والخزرجُ تُعدّ العُدّة لتتويجه ملكًا على يثرب؟

خفض رأسه، لا تواضعًا ، بل انكسارَ مشروعٍ ضاع.

قال متوسلًا :

اكتم عني،

قلت:

أكتم عنك ماذا ؟ أكتم إسلامك الذي أعلنته ؟ أم أكتم كفرًا لم يمت ، بل لبس عباءة الصلاة؟

هنا رفع رأسه ببطء ، وفي عينيه بريقُ ثعلبٍ محاصر ، وقال بنبرةٍ حاول أن يجعلها صادقة:

لستُ وحدي ، ما أكثر الذين أعلنوا الإسلام بألسنتهم ، وظلّت قلوبهم معلّقةً بأصنام الآباء ، نعطي محمدًا ما يريد بلساننا ،وننتظر، ننتظر أن ينتهي أمره وأمر أصحابه.

قلت:

وعلى ماذا تراهن ؟

قال ، وهو يبتسم ابتسامةً مشقوقة :

على سيوف العرب، وخاصة قريش .أو على دهاء اليهود،

قلت:

حلفاؤك ؟

انتفض كمن أُصيب في كبريائه :

ولمَ لا ؟أليسوا هم الذين نصروني على الأحمر والأسود ؟ أليسوا هم الذين جمعوا الأوس والخزرج ليعلنوني ملكًا على يثرب ؟

ثم أردف ، وكأنما يقنع نفسه قبل أن يقنعني :

أنا ذاهبٌ إلى حصون بني قريظة، أصحابي، لأعرف حقيقة ما يشيعه بعض الأعراب العائدين من الصحراء.

قلت:

وماذا يقولون؟

قال ، وهو يهزّ رأسه ساخرًا:

يقولون ما لا يُصدَّق.

قلت:

مثل ماذا ؟ و أنت رجلٌ كذوبٌ منافق ، ومع هذا، قُل ، عسى أن تصدق ولو مرةً في عمرك.

سكت، وسكوته كان أبلغ من ألف اعتراف.

قال أخيرًا :

يقولون إن محمدًا انتصر. في بدر.

هنا ، لم يكن الوادي هو الذي صمت ، بل قلبُ عبد الله بن أُبيّ.

*

كان عبد الله بن أُبيّ يمشي ، لكن عقله يعود القهقرى. يرى نفسه على عرشٍ من نخيل ، يرى الأوس والخزرج صفّين بين يديه ، يرى تاجًا لم يُتوَّج ، وسلطةً أُجهِضت في رحم السياسة قبل أن تولد.

محمد، ذلك الاسم الذي جاء كريحٍ من السماء ، فبعثر حسابات الأرض.

كان يقول في نفسه:

ما ذنبي إن سبقني الزمن ؟ ما جرمي إن جاء نبيّ في غير موعدي ؟ أكان عليّ أن أقاتل السماء لأحافظ على ملكي ؟

لكنه كان يعرف، يعرف أن القضية ليست نبوّةً فقط ، بل عدالة . وليست رسالةً فحسب ، بل صدقًا يفضح كل الأقنعة.

*

حين بلغ الحصون ، استقبلته الأبواب لا بالترحاب ، بل بالحذر.
قال له أحد أحبارهم ، وقد لفّ لحيته بوقارٍ مصطنع :
مرحبًا بسيدٍ بلا سيادة.
اشتعلت عينا ابن أُبيّ :
أهذا وقت السخرية ؟جئتكم بخبر، وبسؤال.
قال الحبر:
نعلم خبر بدر . ونعلم أن محمدًا ليس كغيره.
قال عبد الله بحدة :
لكنكم وعدتموني ! قلتم إنكم تعرفون كتبكم ، وأن هذا النبي ليس هو!
تنحنح الحبر ، وقال ببرود الحكيم الماكر :
الكتب تقول، لكن القلوب تخاف.
قال ابن أُبيّ، وهو يضرب الأرض بقدمه:
إذن تتركوني ؟ تتركون ملكًا ضائعًا؟
قال الحبر:
نحن مع من ينتصر.
خرج عبد الله ، وهو يدرك لأول مرة أنه ليس شيطانًا يُخشى ، بل ورقةٌ تُستعمل.
عاد أدراجه ، والليل يبتلعه.
قال في نفسه:
يا عبد الله ، ما الذي تبقّى لك ؟ لا ملك ، لا حلفاء ، ولا إيمان.
ثم تذكّر المسجد، ومحمدًا، ووجهه الذي لا يعرف الكذب.
قال في سرّه ، وهو يختنق:
لو أنني صدّقت محمد ، لو أنني آمنت حقًا، لكن كيف أُسلم قلبي لمن قتل حلمي ؟
*
حين طلع الفجر ، كان عبد الله بن أُبيّ في الصف ،يصلي مع المسلمين.
لسانه يقول:
الله أكبر.
وقلبه يهمس:
متى تعود الأيام ؟

وهكذا ، كان **شيطان مكة** يحاول أن يعيش في المدينة ، وكان **حواريّ الإسلام** يمضي في طريقه ، لا يلتفت ، لأن النور، لا ينتظر المترددين.

فالتاريخ ، يا صاحبي ، لا يلعن المنافقين فقط ، بل يفضحهم ، سطرًا بعد سطر ، حتى لو صلّوا في الصف الأول.

ظلال بدر، حين انكسر الحلم في حصن قريظة

دخلنا حصن كعب بن أسد كما يدخل المرء كهفًا نُزعت عنه الحياة ، جدران شاهقة لكنها خاوية ، وأبواب موصدة كأنها أطبقت على أنفاس ساكنيها. كان الصمت أثقل من الحديد ، والهواء مشبعًا برائحة الخيبة ، خيبةٍ قديمةٍ متجددة ، كأن التاريخ نفسه يئنّ في زوايا الحصن.

وجوه القوم كئيبة ، شاحبة ، ممدودة بالحزن ، حتى خُيّل إليّ أنها استحالت وجوه خنازير مريضة ، لا قبح الخِلقة بل قبح المصير، وجوه أنهكها الانتظار وخذلتها الحسابات.

في صدر القاعة وقف كعب بن أسد ، زعيم قريظة ، كتفاه منحنيتان كأنهما تحملان أثقال القرون ، عيناه غائرتان تسبحان في بحرٍ من الدموع المكبوتة. كان الرجل يبدو أكبر من عمره ، كأن بدرًا قد شقّت في وجهه أخاديد لا تمحوها الأيام.

قال بصوت مكسور ، وهو يخاطب صاحبيه:

أجل يا ابن سلول ، أجل يا ابن الحباب ، لقد شاهدنا كل شيء.

توقف ، ابتلع غصته ، ثم تابع بنبرةٍ تلامس الجنون :

لماذا كتب الله علينا أن نشهد ضياع أملنا بهذه القسوة ؟ لماذا نُترك أحياءً لنرى أحلامنا تُذبح أمام أعيننا ؟ .

رفع عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأسه ، وقد ارتسمت على وجهه دهشة ممزوجة بالريبة ، وقال :

تعني ، تعني أن المسلمين قد انتصروا حقًا على جيش قريش في بدر؟ .

كان السؤال بسيطًا ، لكن صداه دوّى في القاعة كوقع الطبول في مأتم.

انتصار ؟ الكلمة وحدها كانت كافية لتشعل نارًا في الصدور.

قال كعب ، والدموع تلمع في عينيه كحدّ السيوف :

صدق ، صدق وربِّ يهود.

ثم التفت إلى محمد بن الأشرف ، وقال بصوتٍ آمرٍ منكسر:

احكِ له يا ابن أشرف ؛ احكِ له ما حدث.

تنحنح ابن الأشرف ، وقد كان وجهه متصلبًا ، لكن عينيه فضحتا ما في صدره من خوفٍ وغضب.

قال ابن سلول مستعجلًا:

أشهدتَ المعركة يا ابن الأشرف؟

أجاب في انكسارٍ واضح :

من أولها إلى آخرها يا ابن سلول ، من أولها إلى آخرها.

ساد صمت ثقيل ، قطعه ابن سلول بحدة:

ولمَ لم تشترك مع قريش ؟ تركتَ حلفاءنا يُقتلون بسيوف أصحاب محمد !

ابتسم ابن الأشرف ابتسامةً باهتة ، أقرب إلى السخرية من الحكمة ، وقال:

لو أنني فعلت يا ابن سلول ، لكان أول عمل لمحمد بعد عودته إلى يثرب أن يجتثّنا عنها اجتثاثًا . بقيتُ مع ثلاثةٍ من خدمي فوق تلالٍ قريبة ، نرقب اللقاء المتوقع بين جيش قريش العظيم والزمرة المسلمة التي لا يزيد عددها على ثلاثمائة.

وسكت لحظة ، كأنه يستجمع شتات ذاكرته ، ثم تابع بصوتٍ خافت:

كنتُ أظن ، بل كنتُ أجزم ، أن تلك الزمرة ستُباد في أول صدام. قريش ، قريش يا ابن سلول ! صناديد تعرف صولاتهم وجولاتهم ، سيوفهم لا تخطئ ، وخيولهم لا تتراجع. لكن .

تغير صوته فجأة ، وارتعش:

لكننا رأينا العجب.

اقترب ابن سلول خطوة ، وقال بلهفةٍ مشوبة بالشماتة :

ولدي عبد الله يؤكد لأمه ، وهو يحكي في نشوة ، أن المسلمين تركوا على ثرى بدر أبطال قريش مجندلين.

هنا لم يملك ابن الأشرف نفسه ، فانفجر غضبًا مكبوتًا ، وصاح :

عتبة ، وشيبة ، والوليد ، وعمرو بن هشام ، وأمية بن خلف وولده ، وعشراتٌ غيرهم !

ثم خفَت صوته فجأة ، كأن الكلمات أثقلته :

سيوف المسلمين كانت تهوي فتفلق الهام. في أقل من ساعتين يا ابن سلول ؛ أقل من ساعتين ، امتلأت ساحة بدر بقتلى قريش.

وأطرق برأسه ، ثم رفعه فجأة وقال:

رأيتُ بأم عيني المسلمين يأسرون من استسلم وألقى سلاحه. لن تصدق من وقع في أسرهم.

قال ابن سلول بقلقٍ واضح:

لا تحرق قلبي يا ابن الأشرف ، خلفاؤنا !

ثم أضاف بصوتٍ متردد:

صدق ولدي إذن حين قال إن هزيمة قريش في بدر كانت كاسحة ، مذلة؟

لم يجب أحد مباشرة. كان كعب بن أسد قد غرق في حواره الداخلي ، عيناه معلقتان بسقف القاعة ، كأنه يرى هناك شريط التاريخ يتكرر.

أهذه هي العلامة ؟ أهذا هو النبي الذي قرأنا صفته في كتبنا ؟

تدافعت الأسئلة في رأسه ، كسرب غربان لا يهدأ. تذكر نصوص التوراة ، وتذكر أوصاف النبي الموعود ، وتذكر كيف كان يؤجل المواجهة ، يؤجل الاعتراف ، يؤجل القرار . كنا ننتظر أن يسقط - فإذا به يعلو. كنا نراهن على قريش - فإذا بهم يُسحقون.

قال كعب أخيرًا ، بصوتٍ خافت لكنه حاسم:

نعم ، كانت مذلة.

ثم أضاف بنبرةٍ فلسفية حزينة :

إن التاريخ يا ابن سلول لا يرحم من يخطئ القراءة. نحن قرأنا المشهد بعيون الطمع لا بعيون البصيرة.

تبادل القوم نظراتٍ مضطربة. كان كل واحدٍ منهم يخوض معركته الخاصة ، معركة الخوف على النفوذ ، والخشية من الغد ، والاعتراف الصامت بأن ميزان القوة قد اختل.

قال ابن سلول، محاولًا التماسك :

وما العمل الآن ؟

ضحك كعب ضحكةً قصيرة جافة ، وقال:

العمل ؟

ثم أطرق ، وأضاف :

حين ينتصر الإيمان على السيف ، لا يبقى للمكر إلا أن ينتظر ، أو أن يتهور.

خارج الحصن ، كانت يثرب تغلي بالأخبار ، وبدر لم تكن مجرد معركة ، بل زلزالًا أعاد ترتيب النفوس قبل الصفوف.

وفي داخل الحصن ، جلس الرجال تحت سقفٍ واحد ، لكن كلًّا منهم كان في حصنه الداخلي ، يحصي خسائره، ويخشى يومًا بات أقرب مما يتصورون.

وهكذا، لم تكن بدر نهاية معركة فحسب، بل بداية انكسارٍ طويل ، انكسار حلمٍ بُني على حسابات البشر ، فاصطدم بإرادة السماء.

ظلال بدر: حين انكشفت الوجوه وسقطت الأقنعة

قال ابنُ الأشرف ، وصوتُه يتهدّل بين السخرية والذعر ، كأن الكلمات نفسها ترتجف في فمه:

هكذا فعلوا ببقية أسراكم يا عمير، هكذا ، بلا تردّد ولا رحمة. ولقد رأيتُ بعينيّ هاتين أبا حذيفة بن المغيرة يفعل مثل هذا بولده أميّة.

يا عمير، أيصل سحرُ محمد إلى هذا الحد؟

الأبُ يُقيّد ولده الأسير بالحبال ، كأنما يُقيّد ماضيه بيديه ، ثم، ثم العباس بن عبد المطلب يقع في أسر سعد بن أبي وقاص!

كان عمير بن وهب جالسًا قبالته ، جسدُه هنا وروحه ما تزال هناك ، في ذلك السهل المحموم الذي اسمه بدر. عيناه غائرتان ، كأنهما حفرتان في ذاكرة دامية ، ويداه ترتعشان لا من برد ، بل من رجفة الوعي حين يصحو فجأة.

قال بصوتٍ مبحوح ، كأنما يخرج من صدرٍ مكسور :

كأني في حلمٍ بغيض ، يا ابن الأشرف . في وقدة المعركة عزمتُ ألا أفرّ ، أقسمتُ أن أبقى حتى آخر رمق، حتى رأيتُ أميّة بن خلف وولده عليًّا يُقتلان أمام عيني. قل لي ، ماذا أقول لصفوان بن أميّة ، صديقي ؟ أأقول له : رأيتُ أباك وأخاك يجندلهما عبدهما بلال ، على ثرى بدر ؟

وسكت . سكت كما تسكت الكلمات حين تخجل من نفسها. ثم انفجر باكيًا ، بكاءً مبحوحًا لا دموع فيه ، عويلُ رجلٍ سُحقت رجولته بين مشهدين: مشهد الشجاعة التي خانته ، ومشهد الحقيقة التي داهمته.

عندها، يا ابن الأشرف، استولى عليّ الرعب . قلتُ لنفسي : لو بقيتُ لحظةً أخرى لهلكتُ مع من هلك .

فأطلقتُ ساقيّ للريح ، وولّيتُ الأدبار ، وأنا الذي ما فررتُ من موقعةٍ قط!

وكان ابن الأشرف ينظر إليه نظرة الشاعر حين يعجز الشعر ، نظرة من أدرك أن التاريخ لا يُكتب بالحبر وحده ، بل بالدم ، وبالانكسارات المفاجئة.

خرج ابن الأشرف من عنده ، والليلُ يبتلع أطراف يثرب ابتلاعًا. مضى إلى حصن صاحبه كعب بن الأشرف ، سيد قريظة ، وكان الحصنُ ساكنًا ، كأن الجدران نفسها تتنصّت.

سأله كعب، وهو يحدّق في وجهه:

أولا يزال عمير بن وهب في حصنك، يا ابن الأشرف؟

قال :

حاشا أن يشي به أحد أعراب الصحراء .من يدري من رآه حين طرق بابي؟ أعطيته جوادًا ، وسرّبته من الباب الخلفي ، فانطلق لا يلوي على شيء ، عائدًا إلى مكة.

هزّ كعب رأسه ، ولم يقل شيئًا . كان الصمت أبلغ من الكلام.

وفي زاوية أخرى من يثرب ، كان عبد الله بن أُبيّ بن سلول جالسًا ، منكّس الرأس ، كأن الهزيمة نزلت على كتفيه ثِقلاً لا يُحتمل . قال في يأسٍ مرير :

وأنا ؟ ماذا أفعل الآن ؟

ابتسم كعب بن أسد ابتسامةً فيها تشفٍّ أكثر مما فيها حكمة ، وقال بسجعٍ لاذع:

ماذا تفعل ؟ لعلك اعتدتَ أن تفعل ، يا أبا الحباب ، تُسرع لتكون في استقبال المسلمين العائدين من بدر !

انتفض ابن سلول ، كأن الكلام لسعه لسعًا :

لا أستطيع ، لا أحتمل رؤية فرحتهم . وهم يلوّحون برايات النصر ، ويسحبون وراءهم أسراهم من أشراف قريش في قيودهم .

سيعرف المسلمون في وجهي كل آيات النفاق ، كل ما حاولتُ ستره سينكشف.

قال كعب بن أسد ، بنبرةٍ فيها استعلاء المتفرّج:

لو كنتُ مكانك ، لكنتُ أول من يهنّئ محمدًا بالنصر.

ارتجف ابن سلول:

فإن سألني: لماذا لم تخرج معهم؟

قال كعب:

قل: لو كنتُ أعلم أنكم ستقاتلون ما تخلفتُ عنكم.

تدخّل ابن الأشرف ، كمن يُلقي حجرًا في ماءٍ راكد:

صدقك كعب بن أسد النصيحة ، يا أبا الحباب.

لكن ابن سلول ضرب بيده على فخذه ، وقال في اضطراب:

لا أطيق ، لا أطيق . أرسل معي بعض رجالك ، يا كعب بن أسد، يهنّئون محمدًا بالنصر ، فينشغل أصحابه عني بكم.

ضحك كعب ضحكةً قصيرة ، حادة كالسيف ، وقال في حقدٍ صريح:

نحن نهنّئ عدوّنا بالنصر على حلفائنا ؟ وحق يهود ، لو فعلنا ذلك لظنّ أنه صار سيد يثرب!

ساد صمتٌ ثقيل ، ثم قال ابن الأشرف ، بصوتٍ منخفض لكنه نافذ ، كأنه يقرأ قدرًا مكتوبًا:

واجه الحقيقة ، يا كعبb.لقد صار سيد يثرب ، رضينا أم أبينا. هذا النصر الذي حققه في بدر ، لهو بداية نهايتنا في يثرب ، بل بداية نهايتنا في الجزيرة كلها. سترون، سترون.

وكان التاريخ، في تلك اللحظة، يبتسم ابتسامةً غامضة.

*

وفي الجهة الأخرى من المدينة ، كانت يثرب تتحوّل. الطرقات تفيض بالتكبير ، والبيوت تفتح أبوابها للفرح ، والقلوب تسجد قبل الجباه .راياتٌ ترفرف ، ووجوهٌ أشرقت بعد طول انتظار ، وعيونٌ اغرورقت بدموع الشكر.

عاد المسلمون من بدر ، لا كجيشٍ منتصر فحسب ، بل كأمةٍ وُلدت لتوّها من رحم المعاناة .كانوا يسجدون لله الذي نصرهم وأعزّ دينه ، وأنزل في محكم كتابه آياتٍ تتلى ، تخلّد اللحظة وتربط الأرض بالسماء ، والتاريخ بالوحي.

وفيما كانت الأصوات تعلو :

الله أكبر، الله أكبر،

كانت في الزوايا المظلمة قلوبٌ ترتعد ، ونفوسٌ تحسب الحساب ، وتدرك أن زمن المواربة قد ولّى.

بدر لم تكن معركةً فحسب ؛كانت مرآة. من نظر فيها رأى وجهه على حقيقته:

مؤمنًا ازداد إيمانًا ،ومنافقًا ازداد انكشافًا ، وشاعرًا أدرك أن القصيدة لا تصمد أمام القدر، وسيدًا أدرك أن السيادة انتقلت من السيوف إلى القلوب.

وهكذا ، بين دمعة عمير ، وحقد كعب ، وخوف ابن سلول ، وتكبير محمد وأصحابه ، بدأ فصلٌ جديد من التاريخ ، فصلٌ كُتب في بدر ، وتُلي في يثرب ، وامتدّ صداه إلى الجزيرة كلّها.

بين ظلال بدر، حين يتكلم الليل وتنهزم الكبرياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ صدق الله العظيم.

*

لم تكن يثرب وحدها مسرح التحوّل ، ولا كانت مكة بمنأى عن سنن التاريخ ؛ فكلاهما كانتا، قبل بدر ، جرحين مفتوحين في جسد الزمان : هذه تضمد خوفها بالإيمان ، وتلك تُواري هزيمتها بالكبرياء.

عاد الفارّون من بدر، شتاتًا كريش الريح ، لا يجمعهم سوى العار ولا يؤنسهم سوى الظلام. تسللوا إلى مكة من دروب ملتوية ، كأن الأرض تلفظهم ، وكأن السماء تبرأ من خطاهم. كانوا يخشون النساء قبل الرجال ، والصبيان قبل الفرسان ، فلطالما كان الحجر أصدق شهادة من السيف حين تهرب الجيوش.

وكان عمير بن وهب واحدًا من أولئك الذين عادوا منكّسي الرؤوس ، مطأطئي القلوب ، محمّلين بأوزار الهزيمة. دخل مكة ليلًا ، يلفه السواد كما يلف الذنب صاحبه ، وتخفّى في عتمة الأزقة كأن الظل أرحم من العيون.

وحين بلغ داره ، لم يستقبله دفء البيت ، بل برودة الجفاء. أزورت عنه زوجته أم إمامة ، فأظلم ما في صدره ، إذ كيف تجرؤ امرأة على أن تُدير ظهرها لرجلٍ كان ، حتى الأمس ، يُعدّ من سادة القوم ؟

دخل فراشه مغتاظًا ، وفي أذنيه خرير الهزيمة ، فإذا بأنينٍ خافت يشقّ سكون الليل . كانت زوجته تبكي ، تبكي بكاءً لا يشبه دلال النساء ، بل يشبه نواح الثكالى . صاح فيها ، وصوته يحمل بقايا صلفٍ مكسور :

ويحكِ يا امرأة ! كأنما لم يفرّ من قريش سواي ؟! ألم يفر سراة مكة ؟! ألم يؤثروا الحياة على الموت مع آبائهم وأبنائهم على ثرى بدر؟

التفتت إليه أم إمامة ، وعيناها تقدحان شررًا ، وقد اختلط الدمع بالغضب :

تركت ولدك طريح الخوف يا عمير ، وفررت كالشاة المذعورة !

من زعم لك أن عبد مناف قد قُتل ؟

ولدي عبد مناف لم يُقتل ؟! فأين هو إذن ؟ لماذا عدت دونه ؟!

كان السؤال خنجرًا، والجواب أثقل من أن يُحتمل.

أُسر ، أُخذ أسيرًا ، أخذه ابن خالتك ، عمر بن الخطاب

.قالها وكأن اسمه طعنة أخرى في صدره.

سكتت لحظة ، ثم قالت بصوتٍ فيه رجاءٌ وعناده معًا :

سيطلق سراحه لو ذهبتَ في فدائه.

ضحك عمير ضحكةً مُرة ، ضحكة من يعرف مصيره:

والله إن قريبك عمر لأشدّ المسلمين علينا. وما أحسب إلا أنه سيطلب إلى محمدٍ أن يقتل الأسرى !

قالت بثقةٍ تشبه الإيمان :

ولن يفعل محمد ذلك . اذهب من فورك إلى يثرب ، وافدِ ولدنا.

هنا انفجر عمير ، لا غضبًا فقط ، بل خوفًا وذاكرةً سوداء :

أجننتِ ؟! أنسيتِ أنني كنت أشدّ رجال قريش إيذاءً لمحمدٍ وأصحابه ؟!

ابن خالتك عمر لقي مني ومن غيري من البطش ما لم يلقه أحد.

والله لو وطئت قدمي يثرب لكنت أول قتيل!

أذكّركِ : المسلمون يسمّونني شيطان قريش. أنا الذي جرّدتُ عددهم قبل الموقعة ، وأنا الذي جرّشتُ بينهم بعد مقتل عتبة وشيبة!

كان يتكلم ، لكن صوته الداخلي كان أعلى:

أأنا شيطانهم حقًا ؟ أم أنا ضحية خوفي ؟ أكنت أحارب محمدًا أم أحارب ما في داخلي من شك ؟

ارتجف قلبه ، لا من ذكر الموت ، بل من ذكر الحقيقة.

قالت أم إمامة ، وقد نهضت من وجعها إلى قرارها:

تفعل النساء ما يعجز الرجال عن فعله . إن لم تذهب ، ذهبتُ أنا في الصباح إلى يثرب ، وافدي ولدي بنفسي.

سكت عمير. كان الصمت هذه المرة أبلغ من الكلام. شعر ، لأول مرة ، أن سلطته كرجل تتهاوى ، وأن التاريخ لا يرحم المترددين.

لكن الليل لم ينتهِ بعد ، والصباح كان يخفي ما هو أعظم.

عاد أبو سفيان بالقافلة ، لا يحمل ربح التجارة بل خسارة الدم . علم بمصرع ابنه حنظلة ، وبمصرع أبي زوجته هند ، وعمها ، وأخيها : عتبة وشيبة والوليد .

هنا لم تبكِ مكة فقط ، بل انكسرت.

وأصدر أبو سفيان قرارًا وُلد من رحم الجبن:

لا بكاء ، ولا نواح ، ولا فداء للأسرى.

أراد أن يخنق الحزن حتى لا يشمت محمد وأصحابه ، وأرغم مكة كلها على الصمت ، كأن الصمت يمحو الهزيمة.

في تلك الليلة ، لم ينم عمير . كان فراشه ساحة معركة أخرى ، وصدره بدرًا ثانية. عبد مناف أسير ، وأنا أسير خوفي . محمد منتصر، وأنا مهزوم في داخلي.

تسللت إلى قلبه فكرة، كالسهم المسموم:

ماذا لو ذهبت لا للفداء ، بل للقتل ؟ ماذا لو خلّصت قريشًا من محمد ، وخلّصت نفسي من هذا العار؟

هنا، بدأ التاريخ ينسج خيوطه الخفية ، فكم من نيةٍ وُلدت شريرة ، فانقلبت نورًا ، وكم من قلبٍ خرج ليقتل ، فعاد ليُبعث من جديد.

وكانت يثرب ، في الضفة الأخرى من القدر ، تنتظر رجلًا اسمه عمير بن وهب ، لا لتُقتل على يده النبوة ، بل ليُقتل في صدره الشيطان.

بين سيوف الثأر وأشباح القدر: ليلُ قريش بعد بدر

كان الليل في مكة ثقيلاً ، كأن السماء أطبقت على الصدور ، وكأن الجبال التي طالما تباهت بثباتها أخذت تميل من وطأة الحزن والغيظ. لم تكن بدر معركةً فحسب ، بل زلزالاً أصاب الروح القرشية في عمق كبريائها ، فخلخل يقينها ، وفضح هشاشة سلطانها ، وترك في كل دار ندبة ، وفي كل قلب ثأراً مؤجلاً.

وقف أبو سفيان بن حرب ، سيد قريش غير المتوَّج ، في نادي القوم ، صوته مبحوح لكنه نافذ كالسيف:

يا معشر قريش ، لا تنوحوا على قتلاكم ، ولا تبعثوا إلى محمد في فداء أسراكم ، حتى لا يُشاد عليكم في الفداء ، ولا يُقال إنكم ضعفتم فبذلتم المال والدم معاً .

كانت كلماتُه سجعاً سياسياً بارداً، يحاول أن يُجمِّد به الدم الساخن في العروق. عارضه كثيرون ، فالثكالى لا يصبرن ، والآباء لا يحتملون ، لكن أبا سفيان كان أبا سفيان ؛ يعرف متى يشد الحبل ومتى يرخيه ، وكان يدرك أن الهيبة إذا انكسرت مرة ، سهل كسرها ثانية.

أما هند بنت عتبة ، زوجته ، فكانت ناراً تمشي على قدمين. دخلت البيوت بيتاً بيتاً ، لا لتبكي ، بل لتمنع البكاء ، كأنها تريد أن تحبس الدموع في المآقي حتى تتحول إلى سيوف. كانت تقول للنساء : الصبر الصبر، فإن البكاء يُشمِت، والنواح يُضعف، والثأر لا يُولد من العيون بل من السواعد .

حتى دخلت بيت عمير بن وهب ، ذلك الذي لُقِّب في قريش بـ«شيطانها»، لما عُرف عنه من دهاء ومكر ، فإذا بزوجته أم إمامة تستقبلها بوجهٍ مشتعل ، وصوتٍ يقطر تحدياً:

لو كان لكِ يا هند أسير في أيدي المسلمين ، ما منعتِنا من فداء فلذات أكبادنا ! إني والله لأعلم أن رجالاً من قريش أرسلوا سراً إلى يثرب في فداء أسراهم. هل منعتِ أبا وداعة أن يبعث مالاً كثيراً إلى محمد في فداء أبيه ؟ هل منعتِ مِكرز بن حفص من فداء سهيل بن عمرو؟

توقفت هند، واشتد فكها، لكن أم إمامة تابعت، كأنها تفتح جراحاً عمداً:

أُصيب الأسود بن عبد المطلب في ثلاثة من بنيه: زمعة وعقيل والحارث ، فسقط مفلوجاً ، وأنتم تمنعونه وأهل بيته من البكاء عليهم ! اذهبي يا هند ، فوالله ما ذهب عمير بن وهب في فداء ولدي عبد مناف ، لأذهبنّ أنا بنفسي من الغد .

خرجت هند، ولم تُجب. لكنها خرجت وقد حفرت الكلمات في صدرها حفراً، فالثأر حين يُمنع من الدموع، يبحث عن الدم.

*

وجاء الغد، وخرج عمير بن وهب إلى الكعبة ، يطوف لا تعبداً ، بل هروباً من صخب الأفكار. كان صدره مرجلاً يغلي: ولده أسير ، وقومه مهزومون ، وهيبة قريش تتداعى. هناك ، هرع إليه صفوان بن أمية ، صديقه ونديمه ، وعيناه تقدحان شرراً.

قال صفوان ، معاتباً واللوعة تخنق صوته :

أي عمير؟ تركتَ أبي وأخي يقاتلان ، وأنت تنظر؟

أجابه عمير ، وقد أثقلته الذكريات:

والله يا صفوان ، لو كنتَ معنا في الواقعة ، ما كنتَ تملك أن تفعل لهما شيئاً .

سأله صفوان ، كمن يجرح نفسه بالسؤال :

أشهدتَ مقتلهما يا عمير؟

قال عمير ، وهو يشيح ببصره:

كأنه حلمٌ بغيض، حلم لا أستيقظ منه .

صرخ صفوان:

ومن قتلهما ؟ اذكر لي عدوّي ، اذكر لي عند من ثأري ! من قتل أبي أمية بن خلف ، سيد قومه ؟ ومن قتل أخي علياً ، فخر شباب قريش؟

قال عمير ، محاولاً أن يسكب بعض العقل على نار الجنون:

خفف عن نفسك يا أخي صفوان. والله ما أُصيبت قريش بمثل ما أُصيبت به في بدر. ليس في مكة بيت إلا فقد أباً أو ابناً أو أخاً. كلنا موتورون يا صفوان .

قال صفوان ، وقد انفجر غضبه:

وأبو سفيان يأبى أن يبكي الناس قتلاهم ، أو يرسلوا في فدائهم ! أَنُرسل في فداء أسرانا محمداً ؟ بل نجمع الناس ، ونغزو يثرب ، ونفضّها على المسلمين ، ولا نرعى فيهم إلًّا ولا ذمّة!

قال عمير بمرارة:

تجمع من يا صفوان؟ تجمع من بعد أن هلك صناديد قريش؟

قال صفوان ، كأنما يطعن صاحبه :

أو فررتم يا عمير؟

انتفض عمير :

أتعيرني بالفرار ؟ لقد فرّ عكرمة ، وسُحب أبوه الحكم بن هشام يُلقى منتفخاً في درعه في القليب!

تغير وجه صفوان ، وقد ظن أن شيئاً كهذا قد حدث لأبيه وأخيه ، فسأل متلهفاً:

أفعلوا ذلك بأبي وأخي ؟ أفعلوا ذلك بأمية بن خلف سيد الناس ، وبعلي بن أمية فخر شباب قريش ؟ تكلم يا عمير ! واللات ، لا ينجو من سيفي من فعل بهما ما قلت .

تنهد عمير ، ثم قال قولاً خرج من أعماق تفكيره لا من فوره:

يا صفوان ، ثأرنا جميعاً عند رجل واحد، هو الذي أمر بهذا كله .

قال صفوان بدهشة:

عند محمد وحده؟

قال عمير:

والله ما وترنا إلا محمد. لو قتلنا محمداً ، لأخذنا بثأر كل من قُتل منا .

سكت صفوان لحظة ، ثم قال:

لطالما عظم علينا قتله ، فلم نستطع. الرجل ممنوع يا عمير.

قال عمير ، وقد بدأ الشيطان القديم يهمس في أذنه :

والله لو قتلنا محمداً، لاسترحنا من هذا الهم كله. أما قولك إنه ممنوع ، فذاك من بعض سحره. إنما هو رجل مثلنا ، يجوز عليه ما يجوز على البشر من موت وقتل .

قال صفوان:

وما يجسر أحداً على الاقتراب منه ؟

قال عمير ، بصوت خافت لكنه حاسم:

نستأجر فاتكاً من فتاك العرب. وما أكثر ما فعلت قريش هذا.

ارتاح صفوان لهذا الرأي الدموي ، وأخذ يردده كمن يتذوق طعماً طال انتظاره:

نقتل محمداً، نقتل محمداً .

قال عمير فجأة:

صه! إن رجلاً من بني هلال يقترب منا، وبنو هلال يميلون إلى محمد.

فسكتا ، كأنما ابتلعتهما الظلال ، ثم افترقا إلى داريهما.

*

أما عمير ، فلم يذق طعم النوم تلك الليلة. كان يتقلب على فراشه ، والظلام يزداد كثافة ، والأفكار تتناسل كالعقارب في رأسه. رأى ولده الأسير ، ورأى قتلى بدر ، ورأى هيبة قريش وهي تتساقط كأوراق الخريف. كان يحدث نفسه ، بصوتٍ يسمعه قلبه وحده:

أجل، نقتل محمداً. نقتل من قتل الأحبة. نستأجر لقتله فاتكاً من فتاك العرب. نقتل محمداً، نقتل محمداً .

وكان القدر، في مكانٍ آخر ، ينسج خيوطه على مهل ، غير عابئ بحقد الحاقدين ، ولا بليل مكة الطويل ، فثمة فجر آتٍ ، يحمل في طياته ما لم يخطر ببال شيطان قريش ولا بنديمه الثاكل.

بين سيف الثأر وظلّ المصير:
حوار في ليل مكة

لنقتل محمّدًا .

كانت الكلمة تنبض في فم صفوان بن أميّة كما ينبض الجرح إذا مُسَّ ، تتردّد على شفتيه في اليقظة ، وتطارده في أحلامه السوداء ، كأنها تعويذة دم لا تهدأ. لم تكن فكرة عابرة، بل نداءً داخليًا ينهشه منذ بدر، منذ تلك اللحظة التي انكسر فيها ظهر قريش ، وسقط الأب والأخ على ثرى المعركة، تاركين في صدره حفرة لا يملؤها إلا الثأر.

على رمال بدر، قُتل أميّة بن خلف ، الأب الذي كان ظلًّا كثيفًا في حياة صفوان ، وقُتل عليّ بن أميّة ، الأخ الذي كان امتداد الدم والاسم. ومنذ ذلك اليوم، تشكّلت في عقل صفوان معادلة بسيطة ، قاسية ، لا تقبل النقاش:

محمد هو السبب.

بلال ، عبد الله بن مسعود ، أو أيًّا كان اسم الذراع التي هوت بالسيف، كلهم أدوات. أمّا العقل المدبّر، فواحد لا يتعدد. محمد.

*

الغوص في العقلية النفسية لصفوان

كان صفوان حين يصحو من نومه يشعر بأن الفكرة سبقته إلى وعيه ، وكأنها كانت مستيقظة قبله ، تنتظره على حافة عقله. لم يكن يبحث عن راحة ، بل عن شريك. فكرة بهذا الثقل لا تُحتمل وحدها. كان عليه أن يجد من أوحى بها إليه أو وافقه عليها ، ليخفّف عن نفسه عبء الذنب ، أو ليمنحها شرعية جماعية.

قال في نفسه:

يجب أن يكون الأمر في سرية تامة ، إن بلغ الخبر محمّدًا في يثرب ، تحصّن ، واستحال الوصول إليه.

كان الخوف يمتزج بالكراهية ، والحذر يتجاور مع الحقد. صفوان ليس رجل اندفاع ، بل رجل حسابات ، حتى في جرائمه.

وحين خرج إلى صحن الكعبة ، وجد عمير بن وهب قد سبقه ، كأن القدر يسوقهما إلى الموعد نفسه. هنا ، شعر صفوان بأن الفكرة ليست له وحده ، وأن الشيطان - كما كان يسمي عمير في سره - قد بدأ عمله.

*

عمير بن وهب: المرآة القاتمة

عمير بن وهب ، فتّاك العرب ، وفقير مكة ، وبائع أصنامها. رجل عاش على هامش الشرف ، يقتات من بيع هُبل وآساف ونائلة ، وينهش من أموال المهاجرين كما تنهش الضباع من الجيف. لكنه ، في الوقت نفسه ، عقل حاد ، ولسان يعرف كيف يبرّر القتل باسم المصلحة.

قال صفوان في داخله:

هو صديقي ، قريبي ، نسيبي ، وأنا أنفق عليه أكثر أيام السنة. ثم إنه يكره محمدًا كما أكرهه. لن يتأخر.

كان يرى فيه الأداة المثالية: رجل يعرف كل فتاك الجزيرة ، ويجيد المساومة على الدم.

*

انتحى صفوان بعمير ناحية الحجر ، حيث لا تصل أسماع الطائفين ، وكانوا - في ذلك الصباح الآثم - قلّة.

قال صفوان بصوت خافت ، لكنه مشحون :

لم أنم ليلة أمس يا عمير ، منذ رأيت لي رأيًا.

نظر إليه عمير ، وقد نسي - أو تظاهر بالنسيان - حديث الأمس :

أيّ رأي تعني يا صفوان ؟

قال صفوان ، وكأن الكلمة تخرج من صدره لا من فمه:

قتل محمّد ، ثأرًا لأبي وأخي. قلتَ إنك ستجد لي الفاتك الذي يذهب إلى يثرب فيقتله.

سكت عمير لحظة ، كأنما يقيس المسافة بين الفكرة وتنفيذها ، ثم قال في حيرة :

لعمري ، ليس قتل محمد وهو بين أصحابه بالأمر الهيّن.

اشتدّ ضيق صفوان ، وهو يحاول التنصّل من تردده السابق :

كأنك عدلتَ عن هذا ؟

قال عمير ، بنبرة العارف :

الذي نعرفه أن محمدًا لا يحرس ، ولكن عيون أصحابه لا تغفل عنه لحظة. إنهم - والله - ليتبادرون ماء وضوئه.

كان الحوار هنا يتجاوز التخطيط إلى الفلسفة ؛ فلسفة السلطة والرمز. محمد ليس رجلًا فقط ، بل مركز دائرة ، وكل من حوله كواكب تدور وتحترق دونه.

قال صفوان بإصرار :

إنها ضربة سيف مفاجئة من يد فاتك جسور ، نمنيه ونغريه. فتاك بني بكر بن وائل كثيرون، استأجر منهم واحدًا.

رد عمير ببرود قاتل:

وماذا لو قتله المسلمون إذا بلغ من محمد ما نحب ؟ من يتحمّل بأهله وعياله ؟

ثم ، فجأة ، قلب الطاولة :

يا صفوان ، ما يمنعك أن تذهب أنت إلى يثرب سرًّا وتفعل ما تريد ؟

ارتجف شيء في داخل صفوان ، لا خوفًا من القتل ، بل من فكرة أن يكون الفاعل. قال:

ما اصطنعت السرية قط في أمر من أموري ، وأنت تعرف ذلك.

سكت لحظة ، ثم لمع في عينيه بريق كأنه وجد الحل:

ما بحثنا عن فاتك جسور ، وأنت ابن بجدتها.

تجمّد عمير :

أنا ؟

أجل ، أنت رجل صاحب حيلة وتدبير.

قال عمير ، كمن يسمع حكمًا بالإعدام :

أنا أقتل محمد ؟

وماذا تخشى؟

تنفّس عمير بعمق ، وقال :

ولدي عبد مناة في أيديهم. سيقتلونه إن فعلت.

قال صفوان، بنبرة مطمئنة متصنّعة :

ما أحسب إلا أنهم قد قتلوه كما قتلوا بقية أسراهم. ألم يأتنا أنهم قتلوا النضر بن الحارث ؟

ارتعش صوت عمير :

أسمعت ذلك من ثابت يا صفوان ؟

لقد قتلوه وهو يحاول الفرار ، علي بن أبي طالب.

ساد الصمت ، ثم قال عمير ، وكأنه يتشبث بخيط أخير:

ولكن ولدي لن يفرّ. علمت - وأنا في حصن كعب بن الأشرف - أنه بين الأسرى. أسره عمر بن الخطاب.

ابتسم صفوان ابتسامة مريبة ، وقال:

يا عمير ، ولدك عبد مناة لم يُقتل . وبينك وبين عمر نسب وقرابة.

ثم اقترب أكثر ، وختم بصوت خفيض ، كأنه يوقّع عقدًا مع الشيطان:

يا أبا عبد مناة ، والله إنك لأصلح رجل في الجزيرة لهذه المهمة ، التي كنتَ أنت أول من اقترحها عليّ.

*

في تلك اللحظة ، لم يكن الحوار بين رجلين فقط ، بل بين فكرتين:

فكرة الثأر التي ترى القتل عدلًا مؤجَّلًا ، وفكرة الخوف التي تعرف أن السيف إذا خرج من غمده، لا يعود كما كان.

كان عمير ينظر إلى الأرض ، لا لأنه تواضع ، بل لأنه رأى فيها قبرين محتملين:

قبر محمد ، أو قبر روحه هو.

أما صفوان ، فكان ينظر إلى السماء ، لا طلبًا للهداية ، بل بحثًا عن تبرير كوني لجريمته القادمة.

وهكذا ، في ظل الكعبة ، حيث يُفترض أن تُغسل الأرواح ، تلوّثت النيات ، وبدأت رحلة رجل نحو مصير لم يكن يعلم أنه سيغيّره ، لا بالقتل ، بل باللقاء.

بين الدَّيْنِ والخنجر: حوارُ التردّدِ والقدر

في ليلٍ مكيٍّ كثيف ، كانت الكلمات تتعثّر كما تتعثّر الخُطى فوق رمالٍ باردةٍ تخفي تحتها جمراً. جلس عمير بن وهب ، وظهره إلى جدارٍ صامت ، وعيناه غائرتان في أفقٍ لا يُرى. كان الفقر قد شدّ وثاقه ، والدَّين يلتفّ حول عنقه كحبلٍ خفيّ ، وبناته الأربع يسكنّ قلبه أكثر مما يسكنّ بيته.

قال بصوتٍ مكسورٍ لا يخلو من كبرياءٍ جريح:

يا صفوان، أنا رجلٌ فقير، أثقلتني الديون حتى لم أعد أرى غداً. ولي بناتئ ، أخشى عليهن الضيعة بعدي ، أخشى أن يصبحن أرقاماً في دفاتر النسيان إن غبتُ عن هذا العالم.

كان صفوان بن أمية يُصغي ، لا بعينٍ رحيمة ، بل بعين صيّادٍ يترصّد لحظة الانقضاض. لم يكن الحوار بينهما حوار صديقين ، بل مفاوضة بين خوفٍ وطمع ، بين قلبٍ يتردّد وعقلٍ يحسب الأرباح والخسائر.

رفع صفوان رأسه فجأة، وكأن فكرةً سوداء أضاءت داخله:

ألا يمنعك من التسلل إلى يثرب وقتل محمد إلا هذا ؟

ثم أضاف ببرودٍ حاد:

لولا هذا ، لفعلتَ ما أريد منك دون تردّد.

اهتزّ عمير ، ليس خوفاً من الفكرة ، بل من وضوحها. كانت الكلمة كالسهم ، أصابت مركز الصراع في داخله. في أعماقه ، كان يعرف أن ما يعرضه صفوان ليس مجرد قتل رجل ، بل قتل آخر ما تبقّى من تردده الإنساني.

قال بعد صمتٍ ثقيل:

لولا دَيني وبناتي، لفعلت.

ابتسم صفوان ابتسامة من وجد ضالته ، وقال بسرعةٍ لا تترك مجالاً للتراجع:

أما دينك ، فأنا أقضيه عنك. وأما بناتك ، فهنّ مع بناتي ، أواسيهن ما بقين. والله لا يضيق عليّ شيء ، ولا أعجز عن رعايتهن.

كان العرض كالماء على نارٍ متّقدة. أحسّ عمير أن قلبه يلين ، لا اقتناعاً ، بل استسلاماً. قال وهو يعدّد حججه كمن يطلب عذراً أخيراً لنفسه:

أربع بنات يا صفوان ، ليس لهن غيري. لم أجمع لهن مالاً ، ولم أترك لهن إلا اسمي.

اقترب صفوان أكثر ، وصوته يفيض لهفة:

وأنا ثريّ. هنّ مع عيالي ، إن وقع لك مكروه.

*

الحوار الداخلي لعمير

أهذه نجاة أم هلاك ؟ أأبيع روحي لأحمي أجساد بناتي ؟

كان يشعر أن العالم يضيّق عليه حتى لم يبقَ سوى هذا الممرّ الضيّق: خنجرٌ في مقابل الأمان.

ربما هي ضربة واحدة ، ثم ينتهي كل شيء.

قال عمير وهو يحاول أن يبدو عقلانياً:

لعمري، إن المسلمين يراقبون مداخل يثرب ومخارجها.

ثم أضاف بعد تفكير:

أتسلّل من حصون قريظة. ذلك أدعى أن يقتلني المسلمون إن قدمت إليهم متلصصاً.

ردّ صفوان وقد لمعت عيناه بدهاء:

افعل ما تشاء، المهم أن تبلغ محمداً.

توقّف عمير لحظة ، وكأن فكرةً جديدة خفّفت عنه ثقل القرار:

و لكن ، إن قيل إن محمداً وأصحابه في عِلّة ، فالأوفق أن آتيهم جهاراً.

قطّب صفوان حاجبيه محذّراً:

قد يأخذونك قبل أن تصل إليه.

قال عمير بثقةٍ مصطنعة :

سأقول: جئتُ في فداء ابني الذي بين أيديكم.

ثم أضاف ، وكأنه يهيّئ نفسه للأسوأ :

سأكون في حاجة إلى مالٍ كثير يا صفوان.

أجاب صفوان بلا تردّد :

خذ ما تريد.

خفض عمير صوته ، وارتعشت نبرته:

ولا تخذلني في بناتي ، يا صفوان ، إذا قتلوني ، وولدي.

رفع صفوان يده مقسماً:

أقسم باللات ، لأسدّدنّ دينك ، ولأرعينّ بناتك حتى يستغنين

*

ساد صمتٌ ثقيل. كان عمير يشعر أن الاتفاق قد كُتب ، لا بالحبر ، بل بالدم. لم يعد ثمة مجالٌ للرجوع.

قال صفوان أخيراً:

الآن افعل.

ثم أضاف وهو يضغط على كلماته :

بوركت يا عمير ، فاكتم الأمر كله ، ولا تذكر لأحدٍ شيئاً عن اتفاقنا ، فيتسرّب الخبر إلى أصحاب محمد.

*

خرج عمير من عند صفوان ، والخنجر في ثوبه أثقل من الجبال. كان يسير في طرقات مكة ، لكن روحه كانت تمشي في طريقٍ آخر ، طريقٍ مظلمٍ لا يعرف نهايته.

كان يحدّث نفسه:

هل أنا قاتل ، أم أبٌ يحمي بناته ؟

وهل يُقاس الخير بالنتائج أم بالنوايا؟

في تلك اللحظة ، لم يكن عمير بطلاً ولا شريراً ، بل إنساناً عالقاً بين الخوف والواجب ، بين الحاجة والضمير. كان التاريخ ، من بعيد ، يبتسم ابتسامةً غامضة ، كمن يعرف أن هذا الطريق ، مهما بدا مظلماً ، سيقوده إلى ما لم يكن في حسبان أحد.

سُمٌّ على حدِّ السيف

غوصٌ في ليل عمير بن وهب

في سرٍّ أطبقَ على صدره كما تُطبقُ الليالي على فِجاجِ الصحراء ، شرع شيطانُ قريش ، عميرُ بن وهب ، في الاستعداد لتنفيذ الاتفاق الآثم الذي نسجه مع صديقه صفوان بن أمية . لم يكن الاتفاق كلماتٍ عابرةً تُقال عند احتدام الغضب ، بل كان نذرًا يُعقَد في العتمة ، وتُغذِّيه نارُ الهزيمة ، ويُباركه شيطانُ الثأر. كان عمير ، في تلك الليلة ، رجلًا واحدًا تتنازعه ألفُ نفس : نفسُ الأبِ الأسيرِ ولدُه في قبضة الخصم ، ونفسُ الصديقِ الذي أقسم أن يفي ، ونفسُ الرجلِ الذي يهوى المجد ولو على جسرٍ من الدم.

أخفى الأمر عن زوجته أمِّ إمامة. كان يعرفها كما يعرف مساربَ قلبه ؛ لو علمت لثارت به ثورة الرمل إذا هبَّت عليه الريح ، ولمنعته من مغادرة مكة ، خشيةَ أن يدفع ولدُها الأسيرُ ثمنَ جريمة أبيه. كانت أمُّ إمامة ترى ما لا يراه الرجال حين يعميهم الغضب : ترى المصير قبل أن يُكتب ، وتسمع صرير الأبواب قبل أن تُغلَق . لذلك آثر الصمت ، والصمتُ عنده لم يكن فضيلة ، بل حيلة.

جلس في زاويةٍ من داره ، يحدِّق في سيفه كما لو كان مرآةً لنفسه. شحذ حدَّه حتى لمع، ثم سقاه بالسمِّ، قطرةً قطرة ، كأنما يطعمه شرًّا مصفّى . وكذلك فعل بسنان رمحه ؛ مسح عليه بيده ، وهمس كمن يُلقِّن طفلًا وصيّةً أخيرة. في تلك اللحظة ، مرَّ في خاطره وجهُ ابنه الأسير ، فارتجف قلبه لحظةً ، ثم استوى قاسيًا. قال في نفسه : إنه ثمنٌ ، وكلُّ شيءٍ له ثمن.

انطلق نحو يثرب، والليلُ يمشي معه. كانت الطريق تُحدِّثه ، والحجارةُ تُذكِّره ، والنجومُ تُحاكمه. في كلِّ خطوةٍ كان يسمع سؤالًا لا يجرؤ على الإجابة عنه : إلى أين تمضي ؟ لكنه كان يردُّ على السؤال بسؤالٍ آخر : وأين يعود من باع قلبه ؟

حين لاح له عمرانُ المدينة ، توقَّف لحظةً عند تخومها ، كأنما يقيس اتجاه الدخول. دخلها من ناحية الغرب. لم يكن ذلك صدفة . هناك ، في ذهنه ، اشتعل حوارٌ حادّ:

لماذا لم تدخلها من ناحية حصون أصحابك بني قريظة والنضير ؟

قال السؤال في رأسه بلهجة فتىً ساذج.

ماذا جرى لعقلك يا فتى ؟ ردَّ عمير بحدّةٍ كمن يوبّخ نفسه .**لو رآني أحدٌ من المسلمين آتي من وادي مُذينِب ، حيث مرتع قريظة والنضير ، لأدركوا أني لم آتِ إلا لشرّ. أما هكذا ، وأنا أدخل من الناحية الغربية ، وهي الطريق المستقيم إلى مسجد محمد قرب مساكن أخواله بني النجار ، فسيظنون أني لم آتِ إلا في فداء بعض أسرى قريش.**

كان يعرف أن الحرب ليست سيفًا فقط ، بل طريقٌ ووجهةٌ وذريعة. كلُّ خطوةٍ محسوبة ، وكلُّ نظرةٍ مؤدّاة. ومع ذلك ، كان قلبه يخفق بخوفٍ لا يعترف به. الخوفُ ليس من الموت ، بل من الفشل.

وهل تنوي أن تُحدِث في هذا الأمر عمرَ بن الخطاب، آسرَ ولدك ؟

إنني لم آتِ لأضيع الوقت فيما لا أمل فيه ، قال عمير في حسمٍ بارد .**لقد وعدتُ صديقي صفوان بأن أقتل محمدًا ، فما معنى المماحكة؟ سأدخل على محمد قبل موعد صلاة الظهر، فأضربه ضربةً واحدة، واحدة فقط ؛ فإما مات على أثرها، أو نالَه سمُّ السيف بعد قليل.**

كانت الكلمات في داخله حادةً كحدِّ السيف. لكنه لم يستطع إسكات صوتٍ آخر، أكثر خفوتًا ، أكثر إزعاجًا:

أتحسب أنك ستفعل بذلك ؟

قد قلتُ في الهائجة ، وقد قُتل كيفما كان الأمر ، فقد وفيتُ لصفوان بوعدي ، وأملُ أن يفي هو أيضًا بوعده.

ذلك الوعد كان قيدًا. صفوان وعده أن يقضي ديونه ، وأن يكفل عياله. كان عمير يرى نفسه وقد تحوَّل إلى صفقةٍ كاملة الأركان: دمٌ مقابل مال ، روحٌ مقابل طمأنينةٍ مؤقتة. في تلك اللحظة ، مرَّ شبح أمِّ إمامة في خاطره ، فتجاهله. كان يعرف أن التراجع الآن ليس بطولة ، بل خيانة للعهد الذي عقده مع نفسه.

هل تحسب المسلمين يدعونك حتى تصل إلى رسول الله ، وأنت هكذا في سلاحك ، والسيف في علاقته في رقبتك ؟

سألبدهم بأني ما جئتُ إلا في فداء ولدي ، أجاب بثقةٍ تُخفي ارتعاشًا .**سترون أنني سأخدعهم وأصل إلى محمد. ها هو عمر بن الخطاب ، آسر ولدي ، يهمّ حول المسجد ؛ سيسعده ما سوف يحصل عليه من مالٍ في فداء ولدي، ويتركني أدخل وهو يعدُّ الدنانير.**

دخل المدينة ، والناس من حوله يتحركون في سكينةٍ لا تشبه سكينة مكة . كانت وجوههم تحمل أثر صلاةٍ قريبة ، وكأنهم خرجوا للتو من عهدٍ مع السماء. أحسَّ عمير بثقلٍ غريب ؛ ليس ثقل السلاح ، بل ثقل المعنى .كيف يمشي هؤلاء مطمئنين ؟ سأل نفسه .ألا يخافون ؟ ثم استدرك : أم أن الخوف غادرهم ؟

اقترب من المسجد. كان المكان بسيطًا ، لكنه مشحونٌ بهيبةٍ لا تُرى. هناك ، رأى عمر بن الخطاب. عينان نافذتان ، وخطوةٌ واثقة. أحسَّ عمير بأن السيف في عنقه صار أثقل. لمح عمرُ السلاحَ ، فاشتعل في عينيه شكٌّ لا ينام.

ما جاء بك يا عمير ؟

قالها عمر بصوتٍ يزن الرجال .

جئتُ في فداء ابني ،

أجاب عمير ، محافظًا على نبرةٍ محسوبة .**لقد أكلتني الغربة ، وأحرقتني الفكرة.**

نظر عمر إلى السيف، ثم إلى وجه عمير. كان يعرف هذا الوجه، ويعرف تاريخه. قال في نفسه : هذا لا يأتي بخير .ثم قال بصوتٍ مسموع : **إنه يحمل السلاح ، وليس هذا وقت سلاح.**

لكن عمير أسرع : **إنما هو عادةُ السفر ، وما جئتُ إلا للخير.**

دار في داخل عمير حوارٌ صاخب . كان يشعر بأن كلَّ عينٍ تراه ، وكلَّ قلبٍ يشكُّ فيه. ومع ذلك، كان الأمل - ذلك الأمل الأسود - يدفعه خطوةً خطوة .اقترب ، اقترب ، قال لنفسه ، فإن الضربة الواحدة تختصر كلَّ شيء.

دخل على رسول الله ﷺ. في تلك اللحظة ، انشقَّ الزمن. رأى وجهًا لا يشبه الوجوه التي عرفها ؛ وجهًا هادئًا ، كأنما يعرف القادم قبل أن يجيء ، ويقرأ ما وراء العيون قبل أن تُفصح. هنا ، تزلزل عمير. سقطت من يده الكلمات التي حفظها ، وتعثَّرت الحيلة في فمه.

تحدَّث رسول الله ﷺ، كلماتٍ قليلة ، لكنها أصابت قلب عمير إصابة السهم. ذكر له ما كان بينه وبين صفوان، في تلك الليلة بمكة ، حيث لا ثالث لهما. ذُهل عمير. كيف يُعرَف السر ؟ كيف يُقرأ المكتوم ؟ هنا، انكسرت الحيلة ، وتهاوى البناء الذي شيَّده في صدره.

في تلك اللحظة ، انفتح في قلبه بابٌ لم يكن يعرفه. رأى نفسه كما هي: رجلٌ حمل سمًّا في قلبه قبل أن يحمله في سيفه. سمع داخله صوتًا جديدًا ، ليس صوته ولا صوت صفوان ، بل صوت الحق حين يقتحم الروح. قال ، بصوتٍ خرج من أعماقه : **أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.**

سقط السيف. لم يسقط الحديد وحده، بل سقطت معه سنواتٌ من العمى . شعر عمير بخفَّةٍ لم يعرفها قط. كأنما كان يحمل جبلًا ، فوضعه دفعةً واحدة. التفت إلى عمر ، فرأى في عينيه دهشةً ثم فرحًا. قال عمر ، وقد تغيَّر صوته : **الحمد لله الذي هداك.**

خرج عمير من المسجد إنسانًا آخر. لم يعد شيطان قريش ، بل رجلٌ نجا من نفسه. تذكَّر أمَّ إمامة ، فابتسم ابتسامةً فيها اعتذارٌ طويل. تذكَّر ابنه الأسير ، فشعر بأن السلاسل انكسرت قبل أن تُكسَر . أدرك أن التاريخ ليس ما نفعله بالسيوف ، بل ما يحدث حين تلامس الحقيقةُ القلب.

وهكذا ، انتهت رحلة السمِّ عند باب النور، وتحوَّل حدُّ السيف إلى شاهدٍ على أن النفس ، مهما غاصت في الظلام ، يمكن أن تعود إذا وجدت من يقرأ سرَّها ، ويخاطب عقلها، ويوقظ قلبها.

بين ظلال النبوّة وسيوف الشك
رحلة عمير بن وهب إلى انكسار اليقين

كان النهار في المدينة المنوّرة يتنفّس ببطء ، كأن الشمس نفسها تتريّث احترامًا لهيبة المكان. قبل صلاة الظهر بساعتين ، كانت الطرقات المؤدية إلى مسجد رسول الله ﷺ تغتسل بسكون مهيب ، لا يقطعه إلا وقع أقدام متوضئين ، أو همسات أرواح جاءت تلتمس الطمأنينة.

وفي طرف المشهد ، عند مقربة من باب المسجد ، أناخ رجل راحلته ، شدّ عقالها بإحكام ، ثم وقف لحظةً كأنما يزن الأرض بعينيه ، لا المكان. كان يحمل سيفه ورمحه ، لا يفارقان جسده كما لا يفارق الشك قلبه.

ذلك الرجل لم يكن غريبًا عن ذاكرة الصراع، كان **عمير بن وهب الجمحي**.

*

من داخل المسجد، وقعت عين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على القادم . لم تكن نظرة عابرة ، بل ومضة حدسٍ عسكريٍّ تمرّست على قراءة الوجوه قبل السيوف. التفت إلى بلال بن رباح ، وصوته ينخفض لكنه يحمل حدّة الخطر:

أو ليس هذا عمير بن وهب الذي أناخ قريبًا من باب المسجد ؟

تقدّم بلال قليلًا ، حدّق ، ثم قال بثقة ممزوجة بالحذر:

هو والله يا أبا حفص.

اشتعلت في صدر عمر نار الذاكرة . هذا ليس رجلًا عاديًا . هذا من سمّتهم قريش **شيطانها** .فتاك العرب ، وصاحب الرأي يوم بدر ، ومحرّض الحرب ، وحاسب الأعداد ، وأشعل فتيل القتال.

قال عمر ، وصوته يحمل ريبة لا تخطئها الأذن :

وما جاء بشيطان قريش إلى المدينة ؟ هذا الرجل لا يؤمن جانبه . معه سيفه ورمحه ، والله ما جاء إلا لشر.

ردّ بلال بقلق صادق:

يا أبا حفص، عمير من فتاك العرب، وأخشى أن يكون قد جاء ليُحدِث حدثًا. إنه هو الذي حزرنا لقريش يوم بدر.

شدّ عمر قبضته، وقال :

وهو الذي حرّش بيننا وبينهم ، وأنشب القتال. تعقّل يا بلال ، لنمسك باللعين ، وخذ حذرك ، فإنه عدار.

وانطلقا معًا.

*

كان عمير يستعد لدخول المسجد. خطوة واحدة تفصله عن الداخل ، عن التاريخ. وفي داخله ، كان الحوار أشرس من أي معركة.

اليوم تُغسل هزيمة بدر بدم محمد ، اليوم أُعيد لقريش اعتبارها ، خطوة واحدة ، ضربة واحدة ، وينتهي كل شيء.

لكن ما إن رأى عمر مقبلًا حتى تبدّل وجهه في لحظة . ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرح مصطنعة ، وقال بصوتٍ عالٍ :

أبا حفص؟ والله ما جئت يثرب إلا من أجلك !

تجمّد وجه عمر ، وقال بصرامة :

وما ذاك ، ويحك يا عمير؟

قال عمير ، وهو يحسن لفّ الكلام :

لا حاجة لكم في أموال قريش.

ابتسم عمر ابتسامة ساخرة ، وقال:

ساحرٌ أنت ؟ أقرر أبو سفيان أخيرًا فداء أسراكم ؟

نعم ، وأنا أول من جاء في فداء ولدي. كم تطلبون فيه ؟

اقترب عمر خطوة ، وصوته ينخفض حتى صار كالسيف :

جئت تطلب فداء ولدك والسيف في عنقك ؟ قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنكم شيئًا ؟ كبكم البغي في القليب يا عمير بن وهب !

قال عمير، متظاهرًا بالهدوء:

فدعني أدخل على محمد.

ولِمَ ، ويحك ؟

أليس هو الذي يحدّد قدر فداء كل أسير ؟

قال عمر بحزم :

والله لا تدخل عليه حتى يأذن لك .

ثم التفت إلى بلال:

اطلب له الإذن يا بلال . أما أنا فسأبقى معه . وأعلمك - أخزاك الله - إن مددت يدك إلى قائم سيفك ، قتلتك مكانك.

تظاهر عمير بالاستياء :

أشدّ ما تسيء الظن بي !

دخل بلال على رسول الله ﷺ، وأخبره بخبر عمير. فأذن النبي ﷺ بدخوله.

ما إن تحرّك عمير حتى أمسك عمر بخناقه ، ولفّ علاقة سيفه حول عنقه، لا يترك له أدنى فرصة. كان عمير يكذب ، وصوته يتكسّر :

إنما جئت في فداء ولدي عبد مناة ! والله لا أدري لم يفعل بي عمر هذا ، وهو قريب زوجتي ! دعني يا ابن الخطاب !

قال عمر ، ولا يزال قابضًا عليه :

والله لا أدعك حتى يقضي رسول الله ﷺ في حاجتك . وبعدها لا نأمنك حتى تغادر يثرب.

*

وقف عمير أمام رسول الله ﷺ . كان قلبه يخفق ، لا خوفًا ، بل استعجالًا . أخذ يكثر الكلام عن كارثة قريش يوم بدر ، يصف القتلى ، ويتحسّر ، ويستدرّ العاطفة ، بينما عينه تراقب عمر ، ويده تتحسّس السيف .

لحظة واحدة ، غفلة واحدة ،

قال عمير :

يا محمد ، مُر صاحبك يرسلني ، إنه يلبّني حتى أكاد أختنق.

قال عمر:

يا رسول الله ، الرجل خبيث ، والسيف في عنقه ، ولا نأمنه عليك.

حينها رفع رسول الله ﷺ بصره ، وقال بهدوء النبوّة الذي يُسقط الأقنعة:

دعه يا عمر .

انفرجت القبضة ، لكن الحقيقة كانت على وشك أن تنقضّ .

ثم قال النبي ﷺ :

ادنُ يا عمير.

*

اقترب عمير . هنا، بدأ الزلزال الداخلي . لم يكن وجه محمد ﷺ وجه عدو . لم يكن صوت قائد حرب . كان سكونًا نافذًا ، ونورًا يفضح السرائر .

قال له النبي ﷺ ، وهو ينظر في عمق روحه :

ما الذي جاء بك يا عمير ؟

همّ أن يكذب ، لكن الكلمات خانته.

ثم قال له النبي ﷺ ، قاطعًا كل تمويه :

بل جلستَ أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما قتلى بدر ، فقلتَ : لولا دين عليّ وعيال أخشى عليهم ، لخرجتُ حتى أقتل محمدًا ، فتحمّل صفوان دينك ، وتكفّل بعيالك ، وخرجتَ لذلك .

انهار السيف في داخله قبل أن يسقط من يده .

تراجع عمير خطوة ، ثم خطوة ، وكأن الماضي كلّه ينسحب من صدره دفعة واحدة.

قال بصوتٍ مبحوح :

أشهد أنك رسول الله، والله ما اطّلع على هذا أحد إلا أنا وصفوان ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام.

*

سكت المسجد . وسكت عمر ، لكن عينيه كانتا تلمعان بعبرة النصر لا الشماتة.

خرج عمير من المسجد ، لا بسيفٍ مسلول ، بل بقلبٍ جديد . دخل قاتلًا ، وخرج داعية .دخل يحمل موتًا ، وخرج يحمل رسالة.

وهكذا، عند باب مسجد رسول الله ﷺ ، لم تُهزم قريش بسيف ، بل **انهزم الشك أمام الحقيقة**.

خطوةٌ بين سيفين، وانكسارُ الظلِّ في نور اليقين

ويحكي **عمير** فيما بعد عن تلك اللحظات ، لا بوصفها حدثًا عابرًا من أحداث العمر ، بل بوصفها الزلزال الذي أعاد تشكيل روحه من الجذور ، وكأن الزمان توقف عندها ، ثم استأنف سيره بروحٍ أخرى.

ما إن أمرني أن أقترب منه ، حتى رقص قلبي في صدري فرحًا ، لا فرحَ الطمأنينة ، بل فرحَ الذئب الذي يرى فريسته تقترب من أنيابه دون أن تشعر .

ها هي اللحظة التي تجشّمتُ من أجلها مشاقَّ الرحلة من مكة ، وقطعتُ الفيافي ، و عرضتُ نفسي وولدي لسيوف المسلمين . ها أنا ذا ، عمير بن وهب ، رجل قريش ، وصاحب الثأر ، وخازن الحقد القديم. لم يبقَ بيني وبينه غير خطوةٍ واحدة.

خطوة، لا أكثر . خطوة لو اكتملت ، لغدا في متناول سيفي ، ولضربته الضربة التي يدوي صداها في الجزيرة كلها ، ضربة تُعيد لقريش كرامتها الجريحة ، وتروي ظمأها لدم محمد.

كنت أرى السيف في خيالي قبل أن أراه في يدي ، أسمع صليل الحديد ، وأرى الوجوه المذعورة ، وأسمع صراخ مكة وهي تقول : "ثأرنا."

كنت أتصور نفسي عائدًا ، محمولًا على أكتاف المجد ، أو مقتولًا ، لكن مقتولًا عظيمًا ، لا رجوع بعده للذل.

غير أن شيئًا ما ، شيئًا غامضًا ، غير مفهوم ، بدأ يتسلل إلى صدري كلما اقتربت.

لم تكن السيوف التي تحلّق بها المسلمون من حولي هي ما أقلقني ، فقد اعتدت النظر في عيون الموت .

لكن تلك النظرات ،نظرات محمد . كانت وادعة ، ثابتة ، عميقة ، كأنها لا ترى جسدي ، بل تغوص في أعماقي ، كأنها تعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

نظرات سمعتُ عنها كثيرًا ، ممن أسلموا قبل الهجرة ، وكنت أعدّها خرافة يختلقها الضعفاء. وإذ بي، وأنا أتحين الفرصة ، أسمعه يسألني في هدوءٍ يكاد يكون همسًا ، لكنه همس اخترق صدري كالسهم:

يا عمير، اصدقني، ما الذي جئتَ له؟

تجمّد الزمن . شلّ السؤال يدي ، فلم أجسر أن أمدها إلى قائمة سيفي. لا خوفًا من سيوف المسلمين ، ولا رهبة من عمر بن الخطاب الذي كان يقف كالجبل خلفي ، بل خوفًا من هذا الصفاء المربك ، من هذا السؤال الذي لم يكن سؤال تحقيق ، بل سؤال معرفة.

سكتُّ . وسكوتي طال حتى استثقله من حولي.

فاستحثني عمر ، وصوته يحمل حدّة السيف:

ويحك يا عمير! رسولُ الله يسألك : لماذا جئت ؟

تنفستُ بعمق ، وقلتُ بما ظننته طوق نجاتي:

ما جئتُ إلا في فداء ولدي ، عبد مناة ، الذي في أيديكم.

كذبةٌ صيغت بعناية ، كذبة تحفظ المظهر ، وتؤجل المصير.

غير أن بسمةً حانيةً ، هادئة ، رفت على وجه رسول الله ﷺ ، بسمة لم أرَ فيها سخرية المنتصر ، ولا خبث السياسي ، بل رأيتُ فيها علمًا ، علمًا لا يشبه علم البشر.

قال، وكلماته تسقط في قلبي كحجارةٍ على ماءٍ ساكن :

بل قَصَدتَ أنتَ وصفوانَ بنَ أميّة في الحِجر ، فذكرتما أصحابَ القليب من قريش ، فقلتَ له : لولا دينٌ عليّ وعيالٌ عندي ، لخرجتُ حتى أقتل محمدًا. فتحمّل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلني ، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك.

عندها ، انهار كل شيء. أصابني ذهول شلّ يدي ، وأطفأ نار الحقد في صدري دفعة واحدة . لم أعد أسمع ضجيج المسجد ، ولا وقع الأقدام ، ولا حتى صوت نفسي.

قلتُ، وصوتي يخرج مكسورًا :

كيف بلغك ما لم يصل إلى أذن غيري وغير صفوان ؟ والله ، هذا أمر لم يحضره أحد .وأنا أعلم الآن ، من أتاك به.

رفعتُ بصري ، ولم أجد في وجهيهم دهشة ولا انتصارًا ، بل سكينةً تشبه سكينة السماء قبل المطر.

ما أتاك به إلا الله

في تلك اللحظة ، شعرتُ كأن ستارًا ثقيلاً قد أُزيح عن قلبي .كأنني كنتُ أعيش عمرًا كاملًا في غرفة مظلمة ، ثم فُتح بابها فجأة على نورٍ لا يُحتمل.

تهلّل وجه عمر بن الخطاب ، وقال بصوتٍ يحمل الفرح والحسم معًا:

والآن يا عمير ؟

نظرتُ إلى عمر ، إلى محمد ، إلى نفسي . أيّ نفسي ؟ التي جاءت بالسيف ؟ أم التي تقف الآن عارية من كل يقينٍ قديم ؟

قلت، وقد سبق لساني قلبي هذه المرة ، ثم لحقه القلب مطمئنًا:

أجل، والله يا ابن الخطاب .

ثم التفتُّ إليه ﷺ ، وقلت بصوتٍ سمعته كأنني أسمعه لأول مرة :

يا رسول الله ، أجل .

أقولها الآن ، وقد اطمأن بها قلبي.

توقفتُ لحظة ، وكأنني أراجع تاريخي كله في نفسٍ واحد :

والله، يا رسول الله ، لقد كنا نكذبك بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ،

ثم خنقتني العبرة ، وأكملت :

أما هذا ؟

أجل ، يا رسول الله، أجل.

رفعتُ رأسي، وشعرتُ بثقل السنين يسقط عن كاهلي:

الآن استبان لي الحق . وأحمدُ الله على ذلك.

ثم خرجت الكلمات من فمي ، لا كجملة محفوظة ، بل كولادةٍ جديدة:

أشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأشهدُ أنك رسولُ الله.

سكتُّ .وسكت الكون من حولي.

لم أعد ذلك الرجل الذي جاء من مكة حاملاً سيفه.

كنتُ رجلًا آخر ، جاءه الله بسيفٍ من نور ، فقطع به ظلمات قلبه.

الحمد لله ،

الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، من نية القتل ، إلى حياةٍ لا موت بعدها.

من ظلمة الصدر إلى فجر اليقين

حوار التحوّل في روح عمير بن وهب

كانت يثرب في ذلك الصباح تُنصت لصلاةٍ ليست كسابقاتها ؛ كأن الهواء نفسه كان يتطهّر ، وكأن الحصى تحت الأقدام تُسبّح ، وكأن الزمان قد انحنى إجلالًا لحدثٍ يتشكّل في الخفاء ثم يعلن نفسه في العلن. وقف **عمير بن وهب الجمحي** في الصف ، جسدًا يعرف هيئة الصلاة حديثًا ، وروحًا ما تزال تتلمّس الطريق بين ما كان وما سيكون . كانت تلك **أول صلاةٍ يصليها خلف رسول الله** ﷺ ، صلاةً لم تكن ركعاتٍ فحسب ، بل كانت عبورًا تاريخيًا من ضفةٍ إلى ضفة ، ومن عقلٍ إلى عقل ، ومن قلبٍ إلى قلب.

*

كبر عمير تكبيرة الإحرام ، فإذا بصوته الداخلي يرتجف :

كيف أُحسن الوقوف بين يدي الله ، وأنا الذي جئت يومًا بسيفي أطلب رأس نبيّه ؟ تسللت الذكريات كالدخان : دار الندوة ، الهمس الآثم ، الاتفاق الملعون ، السيف المسموم ، ثم تلك النظرة النبوية التي اخترقت قلبه قبل جسده ، وقالت ما لم يقله بشر. أحسّ عمير أن صلاته ليست اعتذارًا فحسب ، بل اعترافٌ كاملٌ بالهزيمة ، والهزيمة هنا هي عين النصر.

وحين سلّم رسول الله ﷺ، استدار بنوره المعهود ، فإذا به يلتفت إلى عمير ، بعينٍ تجمع الحكمة والحنان ، ويقول :

اجلس يا خال .

فارتجف عمير .

خال ؟

كلمة واحدة أعادت ترتيب نسبه في الكون. لم يكن النداء تشريفًا اجتماعيًا فحسب ، بل إعادة كتابة للهوية : من عدوٍ إلى قريب ، من غريبٍ إلى أهل.

جلس عمير قريبًا من رسول الله ﷺ ، قريبًا جسدًا ، وأقرب روحًا مما كان يظنّ يومًا أن بشرًا يمكن أن يكون.

لم يتكلم النبي ﷺ كثيرًا ، ولم يحتج عمير إلى كثير كلام. كانت الجلسة حوارًا من نوعٍ آخر ؛ حوار الصمت ، حيث تُقال المعاني بلا حروف . كان عمير يغوص في داخله ، كمنٍ يفتح خزائن نفسه واحدةً واحدة:

كم كنت قاسيًا ، كم كنت أعمى ، وكيف صرت أرى ؟

رأى في ملامح النبي ﷺ تاريخًا حيًّا ، لا يُحكى بل يُعاش. ورأى في قربه أمانًا لم يعرفه في سيوف قريش ولا في جاهها.

*

خرج عمير مع **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه ، وكان عمر يومئذٍ قريبًا من زوجته ، قريبًا من عمير ، قريبًا من لحظة الاعتراف. سارا في طرقات يثرب ، والمدينة تشهد ميلاد أخوّةٍ جديدة.

قطع عمر الصمت ، بصوته الذي يحمل صدقًا لا يعرف المداراة :

يا عمير ، لخنزيرٍ نجسٍ كان أحبّ إليّ منك حين رأيتك على باب مسجد رسول الله ﷺ ، وأما الساعة فأنت أحبّ إليّ من بعض ولدي . الحمد لله الذي هداك للإسلام.

توقّف عمير قليلًا. لم يغضب . لم يُنكر . ابتسم ابتسامة من عرف قدر التحوّل . قال في نفسه:

هذا هو الإسلام ، لا يُجمّل الماضي ، بل يغفره.

ثم قال بصوتٍ مسموع :

يا أبا حفص ، خذني إلى حيث حبستَ ولدي عبد مناف ، كي أُحدّثه بما هداني الله إليه ، عسى أن يُساق إلى مثل مساقي.

ضحك عمر ، ضحكةً تحمل دهشة القدر :

عبد مناف ؟

قال عمير ، وفي صوته بقايا أبوةٍ قديمة :

ولدي يا أبا حفص . قيل لي إنك أسرته يوم بدر . فإن لم تكن أنت أسرته ، فمن أسر فتى يُدعى عبد مناف ؟

توقّف عمر ، ثم قال بلهجةٍ تجمع الحقيقة بالبشرى :

ذاك فتى دخل الإسلام قبلَك ، وسمّاه رسول الله ﷺ: عبد الرحمن.

كأن صاعقة نورٍ نزلت على صدر عمير.

ولدي سبقني ؟

ضحك وبكى في آنٍ واحد :

هنيئًا لك يا عبد مناف ، عبد الرحمن ، يا أبا عبد الرحمن . أجل ، أجل ، عبد الرحمن.

الاسم الجديد لم يكن تبديل حروف ، بل إعلان انتماء. لقد خرج الولد من عبودية الأصنام إلى رحابة الرحمن ،قبل أبيه.أيُّ قلبٍ يتّسع لهذه المفارقة إلا قلبٌ أعاد الله تشكيله ؟

أخبره عمر أن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه أشرك عبد الرحمن في تجارته ، وأنهم في طريقهم إليه في **سوق بني قينقاع** .أحسّ عمير أن خيوط حياته كلها بدأت تلتقي في عقدة نور واحدة.

*

أقام عمير بن وهب في يثرب شهرًا أو بعضه . لم يتخلّف هو وولده عبد الرحمن يومًا عن **مسجد رسول الله ﷺ** . كان المسجد مدرسةً نفسية ، واجتماعية ، وفلسفية ، قبل أن

يكون موضع صلاة . هناك تعلّم عمير أن الإسلام لا يكتفي بتغيير المعتقد ، بل يُعيد بناء الإنسان من الداخل.

كان يجلس في أطراف المجلس، يستمع ، ويتأمل. كان يراقب كيف يتحوّل المجتمع من قبائل متناحرة إلى كيانٍ أخلاقيّ واحد. وكان يسأل نفسه في حوارٍ داخلي لا ينقطع: كيف لم أرَ هذا من قبل ؟ كيف كنت أقاتل هذا النور ؟

*

جاء اليوم الذي شعر فيه عمير أن الصمت لم يعد كافيًا. دخل على رسول الله ﷺ، وقد نضج في داخله قرارٌ ثقيل. قال ، بصوتٍ يحمل صدق التوبة وجرأة المسؤولية:

يا رسول الله، إني كنت في جاهليتي جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل. وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ، وإلى الإسلام . لعلّ الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوْذي أصحابك في دينهم.

لم يكن كلامه تهديدًا ، بل فهمًا لطبيعة النفس القرشية ، التي لا تستجيب أحيانًا إلا للقوة المعنوية ، حين تأتي من رجلٍ عرفوه عدوًا ثم عاد إليهم داعية.

نظر إليه رسول الله ﷺ، نظرة من يقرأ التاريخ قبل أن يُكتب ، ورأى في عمير سيفًا كان مسلولًا على الحق ، ثم صار سيفًا للحق.

*

قصة عمير بن وهب ليست حكاية فرد ، بل نموذج إنسانيّ عميق. إنها تقول إن الإنسان ليس أسير ماضيه ، وإن العداء الأشد قد يكون مقدمة لأصدق الولاء، وإن العقل حين يُفتح بنور الصدق ، ينقلب على تاريخه بلا تردد.

لقد غاص الإسلام في عقلية عمير ، لا بالقسر ، بل بالكشف ؛ كشف الزيف عن الوثن ، وكشف الحقيقة في الإنسان نفسه . ومن هنا جاءت قوة التحوّل : لأنه كان تحوّل وعي ، لا مجرد تبديل موقف.

*

خرج عمير من ظلمة الصدر إلى فجر اليقين ، ومن سيفٍ مسموم إلى كلمةٍ هادية ، ومن تاريخٍ يُخجل إلى مستقبلٍ يُشرّف. جلس يومًا قريبًا من رسول الله ﷺ ، فقربه الله من نفسه ، وجعل من قصته شاهدًا خالدًا على أن النور إذا دخل قلبًا ، أعاد كتابة العالم من حوله.

وهكذا، لم تكن صلاة عمير الأولى خلف رسول الله ﷺ نهاية طريق ، بل كانت بدايته الحقيقية.

مكّة حين تُخفي دموعها

جدلُ الصمت والانتظار

كانت مكّة ، في تلك الليالي الثقيلة التي تلت بدرًا ، مدينةً تُحسن ارتداء الأقنعة. لا صراخ في طرقاتها ، لا نواحَ يتسرّب من بيوت بني عبد شمس وبني مخزوم ، ولا دمعةً تجرؤ أن تنحدر علنًا على خدّ أمٍ ثكلى. كأنّ الحزن نفسه أُمر أن يصمت ، وكأنّ الهواء حُقنَ بالرهبة ، فصار أثقل من أن يحمل أنينًا.

في دار الندوة ، جلس أبو سفيان ، شيخ قريش ، وقد جاوزته السبعون ، لكنّ عينيه لم تفقدا حدّتهما. كان يُراقب الوجوه كما يراقب القائد جنده قبل المعركة ؛ يقرأ في التجاعيد ما لا تقوله الألسن . إلى جواره، وقفت هند ، زوجته ، امرأةٌ عركتها المصائب فصارت صلابتها أشبه بسيفٍ صُقل على نار الفقد. لم تكن تبكي ، ولم تكن تسمح للبكاء أن يمرّ في الدار.

قال أبو سفيان بصوتٍ حاسم ، كأنّه يُلقي حكمًا لا رجعة فيه :

لا تنوحوا على قتلاكم، فيشمت بنا المسلمون. ولا تُرسلوا في فداء أسراكم، حتى لا يشتدّ عليكم محمد في الفداء.

تردّد صدى الكلمات في القاعة ، لا لأنّ الصوت كان عاليًا ، بل لأنّ المعنى كان قاسيًا . الصمت الذي تلاها لم يكن قبولًا تامًا ، بل كان استسلامًا مؤقتًا لميزان القوة . هند شدّت قبضتها ، وقالت بصوتٍ منخفض ، لكنه نافذ :

ليكن الصبر سلاحنا الآن. البكاء لا يعيد قتيلًا ، لكنه يُضعف قلب الحي.

غير أنّ مكّة ، مهما أُحكم عليها الصمت ، كانت تحمل في أحشائها براكين لا تهدأ. وفي أحد البيوت المتواضعة ، جلس شيخٌ آخر ، شيخٌ لم يكن له في السياسة قول ، لكنّ له في الفقد بحرًا. رجلٌ قُتل له في بدر ثلاثة من أبنائه : بكر، وعقيل، والحارث. جلس وحده ، الليل من حوله يضغط على صدره ، والذكريات تتدافع في رأسه كجيشٍ مهزوم.

سمع في جوف الليل نائحةً تبكي . توقّف قلبه لحظة. التفت إلى غلامه وقال بصوتٍ مخنوق:

اذهب يا غلام ، وانظر من هذه النائحة في الليل . لعلّ أبا سفيان قد أحلّ النحب ؟ اذهب ، فإني أريد أن أبكي على أبنائي ، فإن جوفي قد احترق.

كان في قوله رجاءٌ خفيّ ، لا بموت أبي سفيان ، بل بإباحة البكاء . كأنّه ينتظر إذنًا رسميًا ليُفرغ ما في صدره . مضى الغلام ، وعاد بعد حين ، وقال :

يا سيدي، إنما هي امرأة تبكي على بعيرٍ أضلّته .

سقط الشيخ على ركبتيه ، وانفجر البكاء من صدرٍ طال حبسه. قال ، وهو ينشد كمن يُحادث نفسه والدهر معًا:

أتبكي أن يضلَّ لها بعيرٌ ويمنعُها من النومِ السُّهودُ

فلا تبكي على بكرٍ ولكن على بدرٍ تقاصرتِ الجدودُ

وبكِّ إن بكيتَ على عقيلٍ وبكِّ حارثًا أسدَ الأسودِ

كان شعره احتجاجًا ، لا على المرأة ، بل على ميزان الدنيا المختلّ ، حيث يُباح الحزن على بعير ، ويُحرَّم على فلذات الأكباد.

*

وفي ناحيةٍ أخرى من مكّة ، كان صفوان بن أمية يمشي في داره ذهابًا وإيابًا. الأرض تضيق تحت قدميه ، والوقت يتحوّل إلى خصم . عمير بن وهب ، صاحبه ، خرج إلى يثرب ، إلى المدينة التي صارت تُسمّى مدينة محمد ، بذريعة التجارة ، لكنّ صفوان يعرف الحقيقة . يعرف أنّ عمير ذهب يحمل في صدره نصلًا مسمومًا بثأر أبيه أمية بن خلف ، وأخيه علي بن أمية ، اللذين سقطا في بدر.

وقف صفوان عند باب الدار ، يحدّث نفسه بصوتٍ خافت :

ما باله قد أطال الإقامة في يثرب ؟ أوجد فرصةً ولم يُحسن اقتناصها ؟ أم أنّ محمدًا يحيط نفسه بحراسة لا تُخترق ؟ أم ، توقّف، وكأنّ فكرةً محرّمة لامست عقله. هزّ رأسه بقوة ، كمن يطرد شيطان شكّ .

لا ، عمير أعرف به. قلبه ملآن حقدًا ، ولن يهدأ له بال حتى يروي نار الثأر.

لكنّ القلق كان يأكل أطرافه ببطء. لم يكن قلقًا على عمير وحده ، بل على المعنى كلّه. ماذا لو عاد بلا شيء ؟ ماذا لو تغيّر ؟ التغيير في تلك الأيام كان أخطر من السيوف.

خرج صفوان إلى أسواق مكّة ، كأنّه يهرب من ضيق الدار إلى ضجيج الناس. كان يلتقي بأصدقائه ، يبتسم ابتسامة غامضة ، ويقول لكلّ من سأله عن حاله :

أبشروا بواقعة ، تأتيكم أخبارها في أيام ، تُنسيكم وقعة بدر.

كانوا ينظرون إليه بدهشة ممزوجة بالأمل.

أيّ واقعة تلك يا أبا علي ؟

فيبتسم أكثر، ويجيب :

سوف تعلمون، سوف تعلمون .

كان هذا الغموض غذاءً نفسيًا له. هو لا يملك يقينًا ، لكنه يملك حاجةً إلى التعلّق بأيّ أمل ، ولو كان وهمًا مؤجلًا.

*

في داخل صفوان ، كان صراعٌ صامت . جزءٌ منه يريد أن يصدق أنّ الدم سيُغسل بالدم ، وأنّ التاريخ سيعود ليكتب صفحةً جديدة لصالح قريش. وجزءٌ آخر ، أعمق وأخطر ، كان يتساءل : ماذا لو لم تكن الهزيمة مجرّد خسارة معركة ؟ ماذا لو كانت بداية تحوّلٍ لا يُردّ؟

كان يخاف هذا السؤال أكثر من خوفه من محمد نفسه . لأنّ السؤال ، إن استقرّ في العقل ، يفتح أبوابًا لا تُغلق

أما مكّة ، فكانت تواصل حياتها كما لو أنّ شيئًا لم يحدث. الأسواق مفتوحة ، القوافل تستعدّ ، الأصنام قائمة في أماكنها. لكنّ تحت هذا السطح ، كان هناك شرخٌ عميق. شرخٌ بين ما يُقال وما يُحسّ ، بين ما يُفرض من صمت وما يعتمل في الصدور.

أبو سفيان، في لياليه الطويلة ، كان يجلس وحده أحيانًا. يتذكّر أبناء القتلى ، يتذكّر وجوههم يوم كانوا صبيةً يركضون في طرقات مكّة. كان يعرف أنّ قراره قاسٍ ، لكنه كان يراه ضرورة. قال لنفسه مرةً ، وهو يحدّق في الظلام:

إن لم نُحسن إدارة حزننا ، أكلنا قبل أن نأكل غيرنا.

وهند، في خلوتها ، كانت تُراجع خساراتها. لم تكن امرأة عادية ، ولم يكن حزنها عاديًا. كانت ترى في بدر جرحًا للكبرياء قبل أن يكون فقدًا للأحبة . قالت في سرّها :

لن نسمح للدموع أن تُربّي فينا الهزيمة. البكاء ترفٌ لا نملكه الآن .

*

وهكذا ، بين شيخٍ يريد أن يبكي ولا يُسمح له ، وقائدٍ يمنع البكاء ليصنع صبرًا سياسيًا ، ورجلٍ ينتظر خبر اغتيال ليشفى صدره ، كانت مكّة تعيش واحدةً من أكثر لحظاتها تناقضًا. مدينةٌ تبدو ثابتة ، لكنها في الحقيقة على حافة تحوّل عظيم.

لم تكن بدر مجرّد معركةٍ انتهت ، بل كانت مرآةً انكسرت ، وكلّ واحدٍ رأى في شظاياها صورته:

هذا رأى ضعفه ، وذاك رأى عناده ، وآخر رأى بداية سؤالٍ لا يريد أن يسمعه.

وكان الزمن ، كعادته ، يمضي غير عابئٍ بالدموع المكتومة ، ولا بالوعود الغامضة في الأسواق. يمضي ليكشف ، بعد أيام ، أيّ الأوهام سيصمد ، وأيّ القلوب ستتغيّر إلى الأبد.

كان الصباح في مكة يشبه صفحة حجرٍ قديم ، صلبًا ، صامتًا ، لكنه يخفي في مسامه آثار أقدامٍ مرّت ، ودموعٍ سالت ، ونوايا لم تُعلن بعد.

كل صباح ، وفي ساعة لا تزال الشمس فيها تتثاءب خلف جبالها ، كان يخرج **صفوان بن أمية بن خلف** إلى مشارف مكة ، كأنما يدفعه نداء خفيّ لا يسمعه غيره. يتجه بخطوات محسوبة نحو الطريق المؤدية إلى **يثرب** ، لا ليقطعها ، بل ليقف عند تخومها ، كحارسٍ للأخبار ، أو كصيّادٍ ينتظر فريسة الكلام.

كان الطريق ممتدًا كفكرةٍ لم تكتمل ، تتلوى بين الصخور ، وتحمل في غبارها أسرار المدن البعيدة. هناك ، يقف صفوان ، منتصب القامة ، شديد الانتباه ، كأن جسده كلّه أذنٌ مصغية . وما إن يلوح في الأفق قادمٌ من تلك الناحية ، حتى يسبقه السؤال ، سؤالٌ صار طقسًا يوميًا ، لا يقدمه ولا يؤخره:

يا أخا العرب ، خبرني ، من أين جئت ؟

يرد الرجل ، وقد أثقل السفر صوته :

من يثرب.

تتحرك ملامح صفوان ، لا ابتسامة ولا عبوس ، فقط ذلك الوميض في عينيه ، وذاك التوتر الدفين الذي لا يراه إلا من خبر النفوس القلقة.

ألم يحدث في يثرب حدث ؟

يتوقف الرجل لحظة ، كأن السؤال أكبر مما يحتمل ، ثم يقول :

حدث ؟ أيّ حدثٍ تعني ؟

ينتفض صفوان قليلًا ، ويقول بنبرةٍ تحمل في طياتها التعريف والتهديد معًا:

أنا صفوان بن أمية بن خلف ، أوَلا تعرفني أيها الرجل ؟

تتسع عينا القادم ، ويقول بسرعة :

بل أعرفك ، ما أكثر ما رأيتك يا أبا علي في مكة في المواسم. أنت والله ما لا يُنكر فضله.

يميل صفوان نحوه ، كمن يريد أن يختصر المسافات بين الصدر والصدر:

فأصدقني ، ولا تخشني شيئًا. ماذا حدث في يثرب ؟

قال الرجل ، وقد بدا عليه شيء من الدهشة لاهتمام صفوان :

حدث ما أدخل السرور على قلوب يهود قريظة ، والنضير ، وقينقاع.

وهنا، تحركت اللهفة في جسد صفوان كما تتحرك النار في الهشيم.

ذلك ما أحب أن أسمع ! تكلم يا رجل، تكلم !

قال الرجل :

تزوّج الربيع بن كنانة ، سيد بني النضير ، من ابنة عمه صفية بنت حيي بن أخطب. أقاموا الأفراح سبع ليال ، ونحروا الجذور ، وأكل الناس ، إلا ما كان من أصحاب محمد.

تصلبت ملامح صفوان فجأة ، وسأل بصوتٍ منخفض لكنه حاد:

ولمَ لم يأكل أصحاب محمد ؟ هل أصابهم ما أحزنهم ؟

لا والله ، ما أصابهم شيء.

ومحمد ، هل رأيته قبل خروجك من يثرب ؟

لست من أهل يثرب ، إنما أدخلها من أجل أسواق قينقاع ، ولم أرَ محمدًا قبل مغادرتي.

ساد صمت قصير ، صمت أثقل من الكلام. ثم قال صفوان ، وهو يشير بيده إشارة إنهاء:

ما أنبأتني شيئًا ، يا أخا العرب. اذهب في طريقك.

مضى الرجل ، وبقي صفوان واقفًا ، لكن الوقوف لم يكن في جسده ، بل في أفكاره.

تراجع خطوة ، ثم أخرى ، كأن الأرض نفسها لم تعد مطمئنة تحت قدميه. وبدأ الحوار الحقيقي ، الحوار الذي لا يسمعه أحد.

*

لو سألت عنه ، عن عمير بن وهب ، لانكشف الأمر.

وأنا لا أريد انكشافه ، لا الآن .أغلب الظن أنه لا يزال يتحيّن الفرصة في محمد. أيمكن أن يكون أمره قد انكشف ؟

لا ، لا . لو انكشف، لقتله المسلمون ، ولجاءنا نعيه من أصحابنا اليهود. لكن ، ما آخره ؟ ما آخره واللات ؟

كان صفوان يعرف نفسه جيدًا ؛ يعرف أن الخطر الحقيقي ليس فيما يجهله ، بل فيما يظنه. كان يعيش على أملٍ هشّ ، أملٍ بناه مع عمير بن وهب ذات ليلةٍ سوداء بعد بدر ، أملٍ يتغذى على الانتظار ، ويعيش على الترقب.

عاد أدراجه إلى مكة ، والمدينة من حوله تمارس حياتها العادية ، تجارة ، أصوات ، ضحكات ، لكنها في عينيه كانت مسرحًا مؤجلًا لكارثة أو نصر.

وفي أسواق مكة ، حيث تختلط الروائح بالكلمات ، والعيون بالنيات ، كان يلتقي بأصحابه القدامى ، بوجوهٍ أنهكها الانتظار كما أنهكه.

كان يقول لهم، بثقةٍ مصطنعة ، وبصوتٍ اعتاد أن يسمع نفسه فيه :

أبشروا يا معشر قريش بوقعةٍ ، تأتيكم أخبارها في أيام ، تُنسيكم وقعة بدر.ينظرون إليه ، تتشابك نظراتهم بين الأمل والريبة.

ما هذه الوقعة يا صفوان ؟

عن أي خبرٍ تتحدث ؟

فيبتسم ابتسامة غامضة ، تلك الابتسامة التي تخفي أكثر مما تقول ، ويرد :

سوف تعلمون، سوف تعلمون.

لكنهم لا يعلمون ، ولا هو يعلم.

وحده قلبه كان يعرف أن هذا الغموض ليس قوة ، بل قناع خوف. كان يخشى أن يسقط الأمل قبل أن يثمر ، ويخشى أكثر أن يثمر فينقلب عليه.

في الليل، حين تخفت الأصوات ، ويعلو صوت الفكر ، كان صفوان يرى وجه محمد في مخيلته ، لا كما هو ، بل كما تخشاه قريش: فكرة لا تُقتل ، ودعوة لا تُحاصر.

ويرى عمير بن وهب ، صديقه القديم ، يسير في طرقٍ لا يعرف نهايتها ، يحمل خنجرًا ، أو يحمل شكًّا ، أو يحمل تحوّلًا لم يحسب له حسابًا.

كان الصراع في داخل صفوان صراع رجلٍ يقف بين زمنين:

زمنٍ يعرفه ، تحكمه الأصنام والتحالفات ، وزمنٍ قادم ، لا يعرف ملامحه ، لكنه يشعر بثقله يقترب.

وهكذا ، ظلّ كل صباح يخرج إلى مشارف مكة ، لا بحثًا عن خبرٍ فقط ، بل هربًا من صمته الداخلي.

وظلّ يردد لغزه في الأسواق ، كمن يتشبث بكلمةٍ لئلا يسقط في الحقيقة.

سوف تعلمون،

وكان هو أول من يخشى أن يعلم.

زلزال اليقين

صفوان بن أمية بين ركام الجاهلية وشقوق النور

ثم كان اليوم الذي اسودّت فيه حياة صفوان بن أمية ، لا سواد ليلٍ عابر ، بل سواد زلزالٍ هزّ البنية العميقة لروحه ، وخلخل أعمدة يقينه القديم ، وأعاد ترتيب العالم في داخله على نحوٍ لم يكن مستعدًا له.

كان يومًا خرج عن مألوف الأيام ، يومًا دخل فيه الخبر مكة قبل أن يدخل الرجل ، كأن الريح سبقته ، كأن الصمت نفسه كان يتهامس بما سيقع.

كان صفوان جالسًا في ظل الكعبة ، حيث اعتاد أن يجلس سادة قريش ، متكئًا على تاريخٍ ثقيل من المجد والدم ، يراقب وجوه الناس ، ويقرأ في العيون قلقًا لا يعترف به أحد. مكة لم تعد مكة التي يعرفها ؛ شيء ما كان يتغير في العمق ، في الأزقة ، في القلوب ، في اللغة ذاتها.

وهو ، صفوان بن أمية ، ابن البيت العريق ، ووارث العداء لمحمد ، كان يشعر أن الأرض تحته لم تعد صلبة كما كانت.

في ذلك الضحى ، دخل رجل مكة من طريق الجحفة. لم يكن دخوله صاخبًا ، ولا مظهره لافتًا ، لكن وقع خطواته كان أثقل من الجبال. رجل قادم من يثرب ، من المدينة التي صارت اسمًا آخر للتهديد ، ومرآةً للخوف ، ومختبرًا لانكسار الوثن القديم.

توقف الرجل عند صفوان ، وتأمله لحظة ، كأنما يوازن الكلمات قبل أن ينطقها ، ثم قال بصوتٍ يحمل نبرة القبائل البعيدة :

يا أخا العرب ، يا أخا العرب.

رفع صفوان رأسه بحدّة ، وفي عينيه بريق الريبة الذي لا يخطئه أحد.

قال بنبرة امتزج فيها الكبرياء بالحذر :

أخالُك تعرفني.

ابتسم الرجل ابتسامة قصيرة ، وقال :

أخالك صفوان بن أمية.

شعر صفوان بوخزة خفيفة في صدره ، ذلك الإحساس القديم حين يقترب الخطر دون أن يتجلى.

قال وهو يحاول أن يبدو مطمئنًا :

أجل، أنا صفوان . ويخطر لي أنك تحمل خبرًا ، أو رسالة.

ارتبك الرجل ، كأن الكلمة فاجأته :

رسالة ؟ ممن ؟

تقدم صفوان نصف خطوة ، وانخفض صوته :

من فارس قريش، من عمير بن وهب. أتعرفه ؟

ساد صمت ثقيل ، ثم قال الرجل :

نعم، أعرفه . ورأيته في يثرب قبل أن أخرج منها.

هنا تغيّر وجه صفوان . تسارعت أنفاسه ، وتقلصت ملامحه ، كأن اسم عمير أيقظ ذاكرةً حادة.

قال بلهجة مباشرة ، كالسيف :

إذن أنت من أصحاب محمد ؟

أجاب الرجل بهدوء ، وكأنه ينطق بحقيقة لا تحتاج إلى تبرير :

ولله الحمد والمنّة . لكني من غطفان.

اشتعل الغضب في عيني صفوان ، وتقدم خطوة أخرى ، وقال بحدّة مكبوتة :

لولا حلفنا مع غطفان لألجمتك بالسيف.

لم يتراجع الرجل ، بل قال بصوتٍ عميق :

يا صفوان بن أمية ، ألا فاعلم أن عمير بن وهب ، قد أسلم.

كأن الصاعقة نزلت.

لم يسمع صفوان بقية الجملة. الكلمة وحدها كانت كافية : أسلم. اهتزّ داخله شيء ما، شيء قديم ، شيء كان يظنه صلبًا لا يتزحزح.

لكن الرجل تابع ، وكأنه يقرأ الذهول في عينيه :

دخل يثرب وفي عزمه أن يقتل رسول الله ، فصار من صحابته ، لا يكاد يفارق مجلسه ، حتى يدخل عليه حجراته.

صرخ صفوان ، لا شعوريًا :

حبسوه ؟ قتلوه ؟

ثم ، وقد غلبه القلق :

تكلم !

قال الرجل :

بل آمن.

ساد صمت أطول . كان صفوان يسمع دقات قلبه ، كأنها طبول حربٍ خاسرة. داخله صراع لا يُرى: صورة عمير الصديق ، المتآمر ، الشريك في الحقد ، تنقلب فجأة إلى تابعٍ لمحمد ؟ كيف يحدث هذا ؟ كيف ينقلب السيف صلاة ؟

قال صفوان بصوتٍ مبحوح :

أعجب كيف لم يبلغنا خبره حتى اليوم.

قال الرجل :

وما فرّ ، ولا اختبأ ، ولا لجأ إلى حصون يهود. بل أعلنها.

غمغم صفوان ، كمن يهذي :

ماذا؟ عمير مسلم ؟

ثم رفع رأسه فجأة ، وكأنه يتمسك بآخر خيط من الإنكار :

أحسبك تتحدث عن رجل غير الذي أعنيه . عمير الذي أعرفه ليس له ولد يُدعى عبد الرحمن.

تنهد الرجل ، وقال :

كان له ولد يُدعى عبد مناف ، أُسر يوم بدر في يد عمر بن الخطاب. أسلم ، فسماه رسول الله عبد الرحمن.

هنا، انكسر شيء ما في داخل صفوان. لم يعد الأمر خبرًا سياسيًا ، ولا ضربةً في معركة. لقد صار الخبر نفسيًا ، وجوديًا ، فلسفيًا .إذا كان عمير ، الذي يعرف ظلمة الكفر كما يعرف حدّ سيفه ، قد انقلب نورًا ، فما الذي يمنع غيره ؟ وما الذي يمنع صفوان نفسه ؟

تراجع خطوة ، ثم أخرى. شعر بأن مكة تضيق ، وأن الأصنام تنظر إليه بعينٍ جامدة ، لا تجيب ، لا تطمئن .

قال في نفسه:

أيعقل أن يكون محمد صادقًا ؟

ثم هزّ رأسه بعنف : كلا ، لكنه ، لكنه أخذ مني عمير.

لم يكن الغضب هو ما يسيطر عليه الآن ، بل الخوف . الخوف من أن يكون العالم الذي بناه هشًّا ، والخوف الأكبر من أن يكون الحق قد بدأ يتسلل إلى حيث لا يريد.

نظر إلى الرجل القادم من يثرب ، فرآه ثابتًا ، مطمئنًا ، كأن قلبه وجد مرساه. وأدرك صفوان ، في تلك اللحظة ، أن الزلزال الحقيقي لم يكن إسلام عمير ، بل الشقّ الذي أحدثه الخبر في داخله هو.

وهكذا ، عاد الرجل من حيث أتى ، وبقي صفوان وحده ، محاطًا بمكة ، لكنه غريب عنها ، يحمل في صدره سؤالًا لم يعرف له جوابًا بعد ، سؤالًا سيطارده طويلًا :

كيف يهزم الإيمانُ السيف ؟ وكيف ينتصر النور على تاريخٍ كامل من الظلام ؟

شيطان قريش عند مفترق الروح
سقوط اليقين في ليل صفوان

عاد صفوان بن أميّة إلى بيته يجرّ قدميه جرًّا ، كأن الأرض قد أثقلت فجأة ، أو كأن خطاياه القديمة قد قرّرت أن تتجسّد حجارةً في نعليه. لم يكن التعب تعب جسد ، بل إنهاك روحٍ اصطدمت بحقيقة لم تُمهلها لتتهيأ. كان يمشي ، وفي داخله ضجيج لا يسمعه أحد ، حوارٌ يتناسل من حوار ، وصوتٌ يعلو فوق صوت ، حتى خُيّل إليه أنه يهذي، أو أن عقله قد انشطر نصفين.

أسلم عمير...

قالها في نفسه ، ثم أعادها ، ثم ضحك ضحكة قصيرة مشروخة ، سرعان ما انقلبت إلى غصّة.

أسلم عمير بن وهب ؟ من يصدّق هذا ؟

أرسله إلى يثرب ، إلى قلب العدو ، إلى محمد نفسه ، وأحمّل بناته ثمن ذلك ما بقيت حيًّا ، ثم يعود إليّ... مسلمًا ؟!

كان الحوار الداخلي ينهشه نهشًا ، يجرّه إلى الماضي القريب ، إلى تلك الجلسة التي انخفضت فيها الأصوات وارتفعت فيها النيات . يوم قال لعمير : اذهب واقتل محمدًا ، ولك عليّ ديْنُك وعيالك . يوم ظنّ أن كل شيء محسوب ، وأن الكراهية إذا بلغت ذروتها صارت سلاحًا لا يخطئ.

لقد كان مثلي ...ومثل عقبة بن أبي معيط ، وأبي الحكم بن هشام ، والنضر بن الحارث... في إيذاء محمد والكيد له ولأصحابه . أليس من أجل هذا سمّاه المسلمون شيطان قريش ؟ فماذا يلقّبونه اليوم، وقد صار منهم ؟

وصل إلى داره ، وأغلق الباب خلفه كمن يغلق على نفسه قبرًا مؤقتًا . تمدّد على فراشه ، لكن النوم جافاه ، كأنه يعرف أن هذا الجسد لا يستحق الراحة. كانت الأفكار تتكاثر ، تتصادم ، تتشظّى ، حتى خُيّل إليه أن رأسه ساحة حرب لا تقلّ ضراوة عن بدر.

في جوف الليل ، تسلّل نحيبه مكتومًا ، حذرًا ، كأن الحزن صار عيبًا لا يليق بسيد من سادات قريش . غير أن أم علي ، زوجته ، التقطت ذلك الصوت ، صوت الرجل الذي ظنّته صلبًا لا ينكسر.

اقتربت ، وقالت بهدوء امرأةٍ عرفت زوجها في قوّته وضعفه :

ما بك يا أبا علي؟ ما هذا الذي يكتم صدرك؟\

صمت طويل . صمت من يُقلّب سرًّا دفنه سنوات. ثم قال ، كأن الكلمات تُنتزع منه انتزاعًا:

أمرٌ أخفيته عنك طويلًا... أطول مما ينبغي.

نظر إليها ، ورأى في عينيها سؤالًا لا يدين ، بل ينتظر. فقصّ عليها الخبر ، من أوله إلى آخره ، من صفقة الدم إلى خيانة التوقّع ، من عمير الخارج بسيفه إلى عمير العائد بقلبٍ آخر.

قالت ، بعد أن أنصتت دون مقاطعة :

رجل اختار لنفسه يا أبا علي... فماذا ؟

كانت كلماتها بسيطة ، لكنها وقعت عليه كالسوط . انتفض ، وقال بحرقة:

يا أم علي، لقد وضعتُ ثأري في رقبته ، فغدر بي !كيف ألقى وجهي بعد اليوم لسراة قريش وندماء الندوة ؟ كنت أمنيهم ، ألوّح لهم بقرب الخلاص ، وأعدهم بضربة تقصم ظهر محمد !

سألته:

أذكرت لهم أنك أرسلت عميرًا ليقتله ؟

قال ، وفي صوته بقايا كبرياء يائس :

كلا. أبقيت هذا سرًّا لأكون أول من يبشّرهم بالخبر . كان أبو سفيان ينظر إليّ كل يوم في دهشة، ويقول ساخرًا:

أيّ حدث هذا الذي تخرج من أجله إلى مشارف مكة كل صباح ؟ فأجيبه : سوف تعرف...

سكت، ثم أردف :

فماذا أقول له الآن لو سألني ؟ كيف أواجه سخريته ؟ أحسبه اليوم الرابح الوحيد من بدر.

قالت أم علي متفكّرة :

أليس قُتل له في بدر ولده حنظلة ؟

ابتسم صفوان ابتسامة مرة :

بلى... لكنه اليوم سيد قريش بغير منازع .

مات أبو الحكم عمرو بن هشام ، فانهدم البيت المخزومي بمقتل سادته ، وقفز بنو عبد شمس إلى الصدارة.

السياسة يا أم علي لا تحزن طويلًا ، إنها تغيّر جلدها أسرع من الثعابين.

تنهد، ثم قال بصوت متهدّج:

ماذا لو علم أبو سفيان بكل ما دبّرته ؟ وبإسلام عمير ؟ لقد خذلني هذا اللعين ابن وهب ، وجعلني أضحوكة قريش.

ولم يطل الزمن حتى تحقّق ما خشيه.

خرج صفوان في أول مرة بعد ذلك إلى ندوة قريش ، يحمل وجهًا جامدًا يخفي بركانًا. وما إن وقعت عينه على أبي سفيان ، حتى بادره الزعيم الجديد بابتسامة باردة ، وقال ساخرًا أمام القوم:

خذلك عمير بن وهب يا صفوان.

كان السهم مباشرًا . لم يُوارِه أبو سفيان ، ولم يحتج إلى تفسير.

قال صفوان، مغتاظًا ، وقد احمرّ وجهه:

أبعده الله ! واللات لو رأيته لقتلته !وما أحسبه يدخل مكة قط وأنا فيها أترقّبه ، وسيفي في يدي !

ضحك أبو سفيان ضحكة شماتة مدروسة ، وقال:

ـــفها هو قد عاد من يثرب.

تجمّد صفوان :

عاد ؟ عاد عمير إلى مكة ؟ متى ؟

أمس.

وكنتَ تعرف فيم ذهب وماذا فعل ؟

علمتُ أنه أسلم.

انفجر صفوان :

ولم تقتله يا أبا سفيان ؟ تركتَ واحدًا من أصحاب محمد يدخل مكة ، وينظر في وجوه من وترهم محمد في أحبّتهم ؟

قال أبو سفيان ببرود السياسي الذي يعرف حدود القوة:

والله ما جسر أحد على أن يتصدّى له .جاء متوشّحًا سيفه ، طاف بالكعبة ، ثم ذهب إلى داره . اذهب إليه إن شئت ، وافعل ما تحب .والله لقد قال قولًا قبيحًا لرجل سأله عن حاله.

ماذا قال؟

قال :من كلّمني في أمر إسلامي كلّمته بسيفي هذا.

ثم أردف بسخرية قاتلة :

اذهب إليه واقتله إن شئت ، فواللات نعلم أنه لم يُغلق عليه بابه قط.

سكت صفوان .

كان في داخله صراع آخر ، أعمق من الغضب. شيء يشبه الخوف... أو الشك.

قال أخيرًا، وهو يشيح بوجهه :

لا أرى وجهه .

ولو خرج غدًا إلى الكعبة... لقتلته.

غير أن الليل عاد ، ومعه عاد الحوار الداخلي.

كان صفوان وحده ، لكن محمدًا كان في فكره ، وعميرًا في قلبه ، وقريشًا على كتفيه.

تساءل ، لأول مرة لا ليسخر، بل ليبحث:

ما الذي يجعل رجلًا يخرج ليقتل ، فيعود ليؤمن ؟ أيّ سحر هذا ؟ وأيّ يقينٍ هذا الذي يهزم السيوف ؟

وهنا ، في هذا السؤال تحديدًا ، بدأ صدعٌ صغير يتشكّل في صخرة صفوان ...صدعٌ لم يكن يعرف بعدُ أنه بداية انهيار طويل.

بين ظلال الكعبة ووهج القلوب
حوار التحوّل والقدر

في فجرٍ مكّيٍّ تتكسّر فيه الأصوات على جدران الذاكرة ، خرج صفوان بن أميّة من داره مثقلاً بما تبقّى من ليلٍ لم ينم فيه قلبه. كانت مكة في ذلك الصباح تبدو كعجوزٍ هرِمة ، تُخفي تحت وقارها جراح بدر ، وتشدّ عباءتها على كتفيها اتّقاء ريحٍ لا تُرى. سار صفوان نحو الكعبة ، يجرّ خطواته جراً ، كأنّ الأرض تأبى أن تحمله ، وكأنّ كل حجرٍ يعرف ما في صدره من تردّدٍ وحنقٍ وخوف.

هناك، عند البيت العتيق ، رأى عميراً مقبلاً ليطوف. لم يكن المشهد عادياً ؛ فملامح الرجل تغيّرت ، لا في هيئته فحسب ، بل في شيءٍ أعمق ، في ذلك الثبات الذي لا يُكتسب إلا بعد صراعٍ طويل مع النفس. قرأ صفوان في وجه عمير عزماً لا يشبه عزائم الأمس ، عزماً لا يعرف التراجع ، ولا يخشى العواقب . شعر للحظة أنّ هذا الوجه الذي حفظه منذ الصبا صار غريباً عنه ، كأنّ بين الأمس واليوم بحراً من نار.

وما هي إلا لحظات حتى دوّى صوت عمير في أرجاء الحرم ، صوتٌ خرج من أعماق القلب قبل أن يمرّ بالحلق:

يا معشر قريش ، تعلمون – والله – إنني كنت أشدّكم على المسلمين ، وأكثرَكم إيذاءً لهم. ولكنّي الساعة أقول لكم : إنني وقد صرتُ منهم ، وآمنتُ بما جاء به الرسول من ربّه ، لأحرصنّ على حمايته ، وحماية من تحبسونهم في بيوتكم عن الهجرة إلى يثرب . والله ما عدتُ إلى مكة إلا لأدعوكم إلى دين الحق ؛ فمن استجاب كسب الدنيا والآخرة ، ومن ناوأني في الدعوة آذيته بأشدّ ما كنت أؤذي به رسول الله وأصحابه .

ارتجّ المكان. لم تكن الكلمات وحدها ما هزّ القلوب، بل صدقها ، ذلك الصدق الذي يُربك السامعين ، لأنّه يعرّيهم أمام أنفسهم. نظر بعض القوم إلى بعض ، ومرّت في العيون ظلال خوفٍ ودهشة. أمّا أبو سفيان ، فكان أشدّهم حذراً. أدرك أنّ عميراً لم يعد ذلك الفتى الذي تُخيفه النظرات ، ولا الرجل الذي تُثنيه الحسابات.

اقترب أبو سفيان بخطواتٍ محسوبة ، ولان صوته وهو يقول :

يا عمير ، أتقول لنا هذا وما زلنا في حرّ المصيبة بفقدِ ساداتنا في بدر ؟

التفت عمير إليه ، وفي عينيه بريقٌ حاسم ، وقال مكرّراً وعيده :

والله ما صرعكم إلا ما صنعتم بأيديكم ، فمن أراد منكم السلامة فلا يتعرّضنّ لي .

كانت الكلمات كالسيوف ، لا تُشهر في الهواء ، بل تُغرس في النفوس. شعر صفوان بشيءٍ ينكسر داخله ، شيءٌ لم يعرف اسمه. أهو الخوف من عمير ؟ أم الخوف من نفسه ، من تلك الأسئلة التي بدأت تستيقظ رغم أنفه ؟

مضت أيام ، وصار صفوان يباعد صاحب الأمس كلما اقترب منه. كان يراه في الأسواق ، يدعو الناس إلى الإسلام ، ثم يعود إلى الطواف ، فيرمق صفوان بنظرةٍ مشوقة ، نظرة من يحمل في قلبه حنيناً لا ينطفئ. كانت ذكريات الطفولة والشباب تهدهد قلب

عمير كلما رأى صفوان: أيام اللعب في أزقّة مكة ، ورفقة السلاح في مواسم الحرب ، وضحكات المجالس التي لا تعرف السياسة ولا العقائد.

لم ينسَ عمير حبيب الأمس قط. وكان يعلم أنّ القلب الذي قسا على الحق ليس ميّتاً ، بل متعب. وفي صباحٍ لم يملك فيه إلا أن يطيع نداء داخله ، مضى إلى حيث يجلس صفوان في الحِجر. جلس قربه في هدوء ، كمن يخشى أن يوقظ جرحاً نائماً.

قال برفقٍ كاد يُسمَع همساً:

السلام عليك يا صفوان .

أدار صفوان وجهه عنه ، وقال ببرودٍ جارح:

والله لا أردّ عليك كلمة .

تنفّس عمير بعمق ، كمن يتهيّأ لغوصٍ طويل :

أتيتك لتسمع مني، يا ابن العم.

إليك عني ، فأنت رجلٌ مشرك

قالها صفوان وهو يعلم في قرارة نفسه أنّ الكلمة لم تعد تصف عميراً كما ينبغي ، بل تصف خوفه هو.

ابتسم عمير ابتسامةً مشوبة بالألم ، وقال :

بل قل : رجلٌ أراد الله له الخير. فاسمعني يا صفوان، لعل

قاطعه صفوان في غضب:

لعل ماذا؟ أتمنّيني بما لا يكون، بعد أن تابعتَ عدونا ؟

قال عمير ، وفي صوته مرحٌ غريب يشبه ثقة من عرف الطريق:

عسى أن أنفعك يا صفوان

ضحك صفوان ضحكةً قصيرة ، كأنها سعال روحٍ مخنوقة:

تنفعني ؟ أما أنا ، فواللات ، لا أنفعك بعد الساعة ، ولا أنفع عيالك بمنفعة قط .

قال عمير ، وقد لان صوته أكثر :

قد أعانني الله بالإيمان يا صفوان. والله يا أخي ما نسيتك لحظةً قط ، و أنا بين إخوتي المسلمين في يثرب. طالما دعوت لك بالهداية ، وأنا أصلّي خلف رسول الله .

ارتجف شيءٌ في صدر صفوان ، فهرب إلى الاتهام السهل:

سحرك محمد .

رفع عمير رأسه ، ونظر في عيني صاحبه نظرة من يُقسم على حقيقة حياته:

يا صفوان، ما هو – والله – بسحر. والله ما أدلّك إلا على الطريق الذي هداني الله إليه .

غضب صفوان ، لأنّ الغضب أسهل من الاعتراف ، وقال :

ويحك يا عمير ! أتجسر على أن تدعوني إلى أن أصبأ ؟ أن أتبع محمداً وأصير مثلك من خدمه ؟

اقترب عمير خطوة ، وكأنّه يريد أن يختصر المسافة بين قلبين لا بين جسدين:

يا صفوان ، ومن محمد ؟ أليس ابن عمّك وصهرك ؟ عزّه عزّك ، ومجده مجدك ، وملكه ملكك .

ارتعش صوت صفوان وهو يقول ، محاولاً أن يستعيد سيطرته:

يا ابن وهب ، لا ترني وجهك بعد اليوم. فإني – والله – أكره أن أقتلك ، مع ما كان بيننا من صداقةٍ ومحبة

ساد صمتٌ ثقيل ، كأنّ الزمن توقّف ليراقب ما سيقوله عمير. ثم قال ، دون غضب ، وفي لين المحبة التي لا تموت:

أما أنا ، فو الله ما أدعك حتى تشهد شهادة الحق. وإن لي معك حديثاً يا صفوان... في الغد .

نهض عمير ومضى ، وبقي صفوان وحده. كانت الكعبة أمامه ، صامتةً كما كانت دائماً ، لكنّ الصمت هذه المرّة كان سؤالاً. شعر أنّ قلبه صار ساحة معركة : عقلٌ يتشبّث بالماضي ، ونفسٌ تتوق إلى شيءٍ لا تعرف اسمه. ولأول مرة منذ بدر ، لم يكن صفوان متأكداً من الطريق الذي يسير فيه... ولا من النهاية التي تنتظره.

رحلة صفوان من عناد الجاهلية إلى فسحة الحِلم

لم تكن مكة يوم الفتح كما كانت قبلها ، ولم يكن صفوان بن أمية كما كان بالأمس. المدينة التي عرفت صوته عاليًا في دار الندوة ، وخطاه واثقة في أزقتها ، صارت اليوم مرآةً تكشف ما كان يخفيه عن نفسه : خوفًا يتقن لبوس الكبرياء ، وكبرياءً يتقن لغة الهرب.

في تلك الأيام التي انكسرت فيها الأصنام قبل أن تنكسر القلوب ، كان صفوان يشعر أن الجدران تسمعه ، وأن التاريخ يحدّق فيه بعين لا ترمش .الأمان العام الذي أعلنه محمد ﷺ لأهل مكة لم يكن في وعيه نعمة ، بل امتحانًا قاسيًا؛ فالطُّلقاء في قاموسه مرادف للهزيمة ، والغفران عنده وجه آخر للغلبة.

*

وكأنما خشي صفوان على نفسه أن تلين ، أن تتصدّع تلك القشرة الصلبة التي عاش بها عمرًا ، فاختار الرحيل.

غادر مكة إلى الطائف ، إلى أهل زوجته ، بحثًا عن جدار يحتمي به من صوته الداخلي. لكنه لم يجد هناك إلا صدًى مضاعفًا لقلقه. ثم عاد ، لا محاربًا عن يقين ، بل هاربًا من مواجهة ذاته ، ضمن ذلك الجيش القليل الذي تصدّى لكتائب الإسلام يوم فتح مكة.

وحين انهار كل شيء سريعًا ، لم يبق له إلا شعاب الجبل .استخفى كما يستخفي الظل من النور ، وركض مع الفارّين ، لا يحمل في صدره سوى سؤال واحد يتردّد بلا جواب:

كيف انتهى بي الأمر هنا ؟

كان الليل في الجبل ثقيلاً ، والنجوم بعيدة كأنها لا تعنيه.

قال في سره:

لو كان هذا دين ضعف ، لما بلغ هذا المبلغ. ولو كان محمد طالب ملك ، لما عفا .

ثم هزّ رأسه بعنف ، كأنه يطرد فكرة آثمة.

لا... العفو سلاح أخطر من السيف.

*

عاد إلى بيته خفيّ الخطى ، لا كسيّد قريش بل كغريب فيها.

قال لزوجته ، وصوته مشدود كوتر قوس:

والله لا مقام لي بعد اليوم في مكة. لأهجرنّ إلى الحبشة .

كان يعلم أن بعض الناس يقولون: إنه سيقذف نفسه في البحر.

ولم يكن ينفي ذلك عن قلبه تمامًا ؛ فالبحر ، في نظره ، أرحم من العفو ، والموت أهون من أن يعيش مكسور الكبرياء.

*

لكن في مكان آخر ، كان عمير بن وهب ، صديق العمر ورفيق الجاهلية ، قد سمع بالخبر.

عمير الذي ذاق طعم التحوّل ، وعرف أن الإيمان لا يهدم الصداقة بل يطهّرها ، لم يستطع أن يترك صفوان فريسة لوحدته.

وقف بين يدي رسول الله ﷺ ، وفي صوته مزيج من الصدق والرجاء:

يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هاربًا منك. بعض الناس يقولون خرج ليقذف نفسه في البحر ، وهو يقول خرج مهاجرًا إلى الحبشة .يا رسول الله ، لو أمّنته لعاد مسلمًا. أو تأذن لي أن أذهب فأعود به .

كان الصمت في المجلس ذا معنى ، ثم جاء الإذن هادئًا كالمطر.

لكن عمير لم يكتفِ. عاد يقول:

يا رسول الله ، إن في صفوان أنفة ، وقد كان منه ما كان يوم الخندمة حين تصدّى لجيش خالد بن الوليد . وأخشى ألا يأمن على نفسه إلا بعلامة... فأعطني آية يعرف بها أمانك.

عندها ، سلّم رسول الله ﷺ عمامته لعمير.

لم تكن قطعة قماش ، بل رمزًا:

عمامة تُظلّل الحلم ، وتوقّع العفو ، وتُسقط حجج الخوف.

*

خرج عمير يسابق الريح على جواده.

كان الطريق طويلاً ، لكن قلبه كان أسرع.

يجري ، ويحدّث نفسه:

يا رب ، لا تجعلني أصل متأخرًا... لا تجعل البحر يسبقني إليه.

وجده عند قرية صغيرة قرب جدة تُدعى رأس النائم.

كان صفوان واقفًا عند حافة الرحيل ، ظهره للأرض ، ووجهه إلى المجهول.

فلما رآه ، أزْوَرَّ عنه وقال بحدّة اليائس:

إن كان محمد قد أرسلك لتقتلني فافعل. فو اللات ، لقد صارت بطن الأرض أحبّ إليّ من ظهرها .

ابتسم عمير ابتسامة من يعرف صاحبه أكثر مما يعرف نفسه ، وقال :

والله ما جئتك إلا بالحياة يا صفوان. أهذا عهدك بصاحبك؟

قال صفوان ، وصوته يختلط بالملح والريح:

إني أعفيك من قتلي، وسألقي بنفسي في البحر .

اقترب عمير خطوة ، ثم قال بحرقة:

يا صفوان ، فداك أبي وأمي ، الله الله في نفسك أن تهلكها. هذا أمان من رسول الله ، قد جئتك به .

صرخ صفوان من أعماقه:

جئتَ تمرّغ أنفي في التراب ! مذلٌّ وهارب أنا يا عمير .

قال عمير ، وقد وضع العمامة أمام عينيه :

أي صفوان ، فداك أبي وأمي ، إنه ابن عمك. عِزُّه عزُّك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك .والله إنه لأفضل الناس ، وأبرّ الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس .

تراجع صفوان خطوة ، وقال بصوتٍ منخفض :

إني أخافه على نفسي .

قال عمير بثقة العارف:

هو أحلم من ذلك، وأكرم. وقد أرسلني بعمامته آيةً لأمانك .

*

عاد عمير بصاحبه العاصي .كانت خطوات صفوان ثقيلة ، لا من طول الطريق ، بل من ثقل التحوّل .وفي داخله ، حوار لا يهدأ:

هل أعود لأعيش ؟ أم لأُدان ؟ هل هذا الحلم فخ ؟ أم باب ؟

وقف أمام رسول الله ﷺ ، وقال بعناد الجاهلية الذي لم يمت بعد:

إن عميرًا هذا يزعم أنك أمّنتني

ابتسم رسول الله ﷺ ، تلك الابتسامة التي تهزم السيوف ، وقال:

صدق عمير .

سكت صفوان لحظة، ثم قال:

فاجعلني في الخيار شهرين .

فقال أحلم الناس وأبرّ الناس:

أنت في الخيار أربعة أشهر .

في تلك اللحظة ، لم يُسلم صفوان بعد...لكن شيئًا في داخله أسلم.انكسر الخوف ، وبدأ العقل يعيد ترتيب مفاهيمه:

أيُّ قائد هذا الذي يعطي أكثر مما يُطلب ؟ أيُّ نصر هذا الذي لا يطلب ثمنًا ؟

خرج صفوان ، والعمامة ما تزال تظلّل قلبه ،

والبحر صار بعيدًا ، والخيار... صار حياة.

حين يلين الحديد: حنينُ القلب بين سيفين

كان الفجر في وادي **حنين** يشبه جرحًا مفتوحًا في صدر التاريخ ؛ ضبابٌ خفيف يعلّق أنفاس الرجال ، وصمتٌ ثقيل يسبق العاصفة. في ذلك الصباح ، خرج الصديقان مع جيش رسول الله ﷺ :**عمير** ، الذي انشرح صدره للإسلام حتى صار من حواريّيه ، و**صفوان** ، العنيد الذي لم يختر لنفسه بعد ، يقف على حافة المعنى ، تتجاذبه ذاكرة الآباء وسؤال الحق.

كان عمير يسير بخطى واثقة ، كأن الأرض تعرف قدميه ، وكأن قلبه قد سبق جسده إلى الموقف. أمّا صفوان ، فكان سيفه يلمع أكثر من يقينه ؛ عيناه تجولان في الوجوه والرايات ، تتفحصان التاريخ وهو يتهيأ ليُكتب بالدم. في داخله حوار لا يهدأ:

أأنا هنا لأنّي اخترت ، أم لأن الريح دفعتني ؟

وهل السيف يعرف لمن يُرفع ، أم القلب هو الدليل ؟

التفت عمير إلى صاحبه ، ابتسامة خفيفة تشقّ وجهه المتعب :

يا صفوان ، إنّ للطرق نهايات ، وبعضها لا يُرى إلا حين نمشيه.

لم يُجب صفوان. كان يسمع صليل الحديد أكثر مما يسمع الكلمات. لقد تعلّم من أبيه أن العناد ميراث ، وأن الكبرياء لا يُكسَر. لكنه في هذا الوادي شعر بشيء يتصدّع ؛ كأن التاريخ نفسه يسأله : إلى متى ؟

*

اشتعلت المعركة فجأة ، كما تشتعل النار في هشيمٍ يابس. صياح، غبار ، خيولٌ تصهل ، ورماحٌ تشقّ الهواء. بدا كأن المشركين يوشكون على أن يحققوا نصرًا مباغتًا على كُتَل الإيمان. في خضمّ ذلك الجنون ، تعالت أصوات من صفوف الكافرين:

الآن أدرك ثأري من محمد ! والله لأقتلنه اليوم !

كان الصوت حادًا ، مشبعًا بالحقد القديم ، كأن صاحبه ينتظر هذه اللحظة منذ أعوام. اهتزّ قلب صفوان. لم يكن الصوت غريبًا ؛ عرف تلك النبرة ، نبرة من يحمل ثأرًا أكثر مما يحمل عقلًا.

في تلك اللحظة ، ثبت مع الرسول ﷺ من أراد الله لهم الكرامة. قلةٌ في العدد ، عظمةٌ في المقام. وقفوا دونه ، فرسان الوغى ، كأنهم جدارٌ من نور وسيوف. التفت النبي الكريم ، وفي عينيه سكينة الأنبياء ، يرى الوجوه التي اختارت الثبات.

وهنا، انفتح المشهد على مفاجأة لم تخطر ببال كثيرين.

كان **صفوان بن أمية** يصول ويجول ، يضرب بسيفه كل من يقترب من رسول الله ﷺ ، كأن قوةً خفية حررته من تردده. رأى الرجل الذي صاح بالثأر يندفع ، فاعترضه صفوان بضربةٍ قاطعة ، أسقطته أرضًا. تتابعت الضربات ، وكل ضربة كانت كأنها تهدم صنمًا في داخله.

صرخ صفوان ، وصوته يخرج من أعماق لم يعرفها من قبل :

يا رسول الله ﷺ ! والله لا يأتيك شرّ من هؤلاء المشركين ونحن حولك !

كان صوته أعلى من ضجيج المعركة. لحظة صمتٍ خاطفة سكنت قلبه بعدها ، وكأن روحه سمعت نفسها لأول مرة. ثم صاح من جديد ، موجّهًا خطابه إلى الصفوف المتراجعة:

يا معشر المسلمين ! ذُبّوا عن نبيكم ودينكم !

في تلك اللحظة ، لم يعد صفوان يفكّر. لم يعد يسأل : لماذا ؟ كان الفعل قد سبق السؤال ، واليقين وُلِد من رحم الخطر.

ابتسم الرسول الكريم ﷺ. لم تكن ابتسامة نصرٍ عسكري فحسب ، بل ابتسامة قلبٍ رأى الحقّ وهو يتجلّى في ساعةٍ من أحوج ساعات الإسلام. رأى ابن عمّه ، الذي طالما عرفه عنيدًا ، يقف موقف الرجال الذين تصنعهم اللحظات الكبرى.

وفي داخل صفوان ، كان الحوار أشدّ ضراوة من السيوف :

ما هذا الذي أفعل ؟ أأدافع عن رجلٍ كنتُ أخاصمه ؟ أم أدافع عن معنى وجدني قبل أن أجده ؟

وشعر لأول مرة أن العناد ليس قوة ، بل قيد ، وأن الحرية قد تكون في الانحناء للحق.

*

دارت الدائرة. انقلبت الموازين. ثبتت القلوب ، وانهزم الباطل. عاد جيش الإسلام وقد جلّلته سكينة النصر ، لا صخب الفخر. كان النصر في حنين درسًا في النفس قبل أن يكون فتحًا في الأرض.

وعاد الصديقان ، عمير وصفوان ، إلى مكة. لم يكونا كما خرجا. كان في عيني صفوان بريقٌ جديد ، ليس بريق السيف ، بل بريق المعنى. صار صمته أعمق ، وكلامه أقلّ ، كأن الكلمات تنتظر إذن القلب.

في **الحِجر** ، حيث تهدأ الأصوات وتتعانق الظلال ، وقف عمير إلى جوار صاحبه.

نظر إليه بفرحٍ صادق ، فرح من يرى ثمرة الصبر :

انظر يا صفوان ، إلى أين انتهى بنا الأمر ؟

ثم أضاف ، وصوته يحمل امتنان السنين:

وإني والله لم أيأس منك ، والحمد لله الذي ساقك هذا المساق.

تنفّس صفوان بعمق. نظر إلى الكعبة ، إلى الحجارة التي شهدت عبادة الأصنام وسمعت تلاوة التوحيد. قال ، وكأنه يختبر الكلمات على لسانه :

الحمد والمنّة لله ولرسوله يا أخي عمير.

سكت لحظة ، ثم كررها ، وكأن التكرار تثبيت :

الحمد والمنّة لله ولرسوله.

في تلك الكلمات ، سقط آخر جدار. لم يكن إسلام صفوان صاعقة ، بل شروقًا بطيئًا بعد ليلٍ طويل. لقد فهم أخيرًا أن الإيمان ليس هروبًا من التاريخ ، بل مصالحة معه ، وأن أعظم الانتصارات هي التي تقع في الداخل.

أما عمير ، فابتسم ابتسامة من عرف أن القلوب بيد الله ، وأن الصداقة الحقة هي أن تصبر حتى ترى من تحبّ وهو يجد نفسه.

وهكذا ، في حنين ، لم تُهزم جيوش فقط ، ولم تنتصر رايات فحسب ؛ بل لانت قلوب كانت أصلب من الحديد ، وكتب التاريخ صفحةً تقول:

إن بعض الرجال يولدون مرتين ؛ مرةً من أمهاتهم ، ومرةً من مواقفهم.